الأنوار

في

آداب الصحبة عند الأخيار

تأليف

العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني

(المتوفى سنة ٩٧٣هـ)

عني به

أنس الشرفاوي





في آداب الصحبة عند الأخيار

تأليف

العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني
(المتوفى سنة ٩٧٣هـ)

عني به

أنس الشرفاوي





الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

العنوان : الأنوار في آداب الصحبة عند الأخيار

المؤلف : عبد الوهاب الشعراني

عني به : أنس الشرفاوي

عدد الصفحات : ١٦٨

قياس الكتاب : ١٧ × ٢٤



دمشق - الزاهرة الجديدة

قرب جامع أبي أيوب الأنصاري

هاتف ٥٤٤٤٣٩٩ - جوال ٠٩٣٣ ٨٦٠٠٦٦



مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا وحبيبنا محمد فخر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله أهل بيته الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالإمام الشعراني رحمه الله تعالى علمٌ من أعلام المسلمين لا يخفى ذكره، ورباني مجدِّد من أعيان القرن العاشر لم يعف أثره، وواحد من أولئك الموفقين الذين خلَّد لهم التاريخ أسطراً ذهبية في صحائفه البيض.

ومسيرة الإصلاح التي حمل لوائها في مصَر المحروسة قد كتبَ الله تعالى لها التوفيقَ لتعمَّ بلاد المسلمين قاطبة، فأيُّ بلد إسلامي اليوم لا يعرف الكتب التربوية والأخلاقية التي خلفها ذاك الإمامُ العظيم؟!

لقد طافت مؤلفات الشعراني تطوافاً قلَّ نظيرُه، واعتنى بها علماء التزكية والتربية عناية فائقة؛ لما حوته تلك المؤلفات من تدقيق وتوصيف لأمراض القلب وعلله وبتفنيد عجيب، دالٍّ على خبرة علاجية هي الغاية، ومهارة طبيَّة في استئصال الداء من جذوره نادرة فذة، ومعرفة ثاقبة بالأدوية والأدواء تنمُّ

عن رعاية وتوفيق إلهي لا يتأتى بجد وكسب فحسب، يدرك هذا كله كلُّ من قلَّب النظرَ في كتب الإمام وأعارها انتباهه، ليجدَ نصوصاً تقرأ ما فيه قبل أن يقرأ ما فيها!!

وهو كغيره من الربانيين الأخيار الذين وجَّهوا عنايتهم الكبرى للحديث عن القلب وعن صلاحه، وهم يسلكون أقرب السبل لكل صلاح، وأصلهم الأصيل في ذلك: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت.. صلح الجسد كله، وإذا فسدت.. فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

فهل بعد ذاك عتاب؟ وهل يلام هؤلاء المصلحون على هذا المسلك التربوي الذي انتهجوه؟

وهذه الرسالة التي هي بين أيدينا اليوم واحدة من المخلف الأخلاقي الذي ورَّثه لنا إمامنا الشعراني، وهي على لطف حجمها قد حوت من غرر الفوائد ونفيس النصائح ما يثلج القلب ويسرُّ العين، فما جمعته من آداب الأخوة في الله تعالى لا يظفر به من غيرها.

إضافة لما حلّى به المؤلف هذه الرسالة من سرد شيء عن آداب الكمل وصفوة الصفوة، العلماء العاملين الذين يتقرب المتقربون بمحبتهم للمولى عز وجل، ومن عاداهم.. فقد آذنه جل وعلا بحربٍ من عنده، ومن سار على خطاهم.. فقد نال هناءة الوصل قبل الفصل، ومن قصرت همته عن درك مراتبهم وأفعم القلب بمحبتهم.. فقد نال الدرجات العلا والمرء مع من أحب، ومن جالسهم وهو ليس منهم.. غفرت ذنوبه وهم القوم لا يشقى بهم جليس.

وهذه الرسالة قد كانت حبيسة الأدراج قرابة عشر سنين بعد إخراجها إلى النور مرة أخرى؛ إذ كانت العملَ الذي قدمته عند تخرجي في معهد الفتح

الإسلامي العامر بدمشق الشام، وكانت الخطوة الأولى لخادمها ومخرجها في عالم التحقيق.

ولطلب من سادة كرام، وإذن منهم بطباعتها بعد أن نظروا فيها. . فقد تهممت لإخراجها كما هي، مع تعديل طفيف لا يغير روح العمل الأول الذي كانت عليه، إذ كانت يومها تمتع الصحب حولي وتؤنس فكرتهم، وهي تحضنا جميعاً على التحلي بتلك الفضائل التي صارت غريبة في أهلها، نازحة عن ديارها، مشتاقة لتسكن في قلوب المؤمنين المخبتين من عباد الله الصالحين.

ورسالة الأنوار التي ألفها الشعراني ذات طابع اجتماعي وأخلاقي وتربوي، فموضوعها الأساس ضوابط الصحبة بشكل عام، وضوابطها عند الصوفية بشكل خاص، والحديث عن أدب القوم الذي ورثوه عن سلفهم الصالح رضي الله عنهم.

إنها أخلاق، والأخلاق عنوان الحضارة، وبون شاسع بين أخلاق الرعيل الأول من سلفنا الصالح وبين أخلاق المسلمين اليوم، وإنما الأمم الأخلاق، فأمة ضيعت أخلاقها لا خلاق لها يوم القيامة.

وعندما كتب الشعراني هذه الرسالة كتبها لأهل عصره الذين أصابتهم البطالة، والبطالة كما يرى المتتبع لهذا المصطلح عند الشعراني في كتبه يدرك أنه قصد ترك العمل بالعلم، وسترى ذلك في مقدمة التأليف.

لقد أدرك المؤلف الارتباط الوثيق بين العلم والعمل، فالعلم بلا عمل نحل بلا عسل، وهو كما يقول الراجز:

وعالمٌ بعلمهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ... معذبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الوَثَنْ

من قرأ تاريخ تأليف الرسالة. . يدرك هذا بوضوح وجلاء، فضرورة تأليف هذه الرسالة وأمثالها كان ملحّاً، وهو مثله اليوم، فالحال واحدة، والأدعياء كثر، ونسأل الله أن يرحم بعضنا ببعض.

والحديث عن سبب التأليف وطبيعة المؤلِّف، ومشابهته لغيره من التأليف في نفس الموضوع ذو شجون، أهابه خشية الإطالة والملل.

إن هذه الرسالة أدب عملي، والناس في الأدب على ثلاث طبقات، كما يقول أبو النصر السراج، أما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم والمنظوم، وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود وترك الشهوات، وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

ولهذا كلِّه؛ ستكون لهذه الرسالة التي سطرتها بنان المؤلف مكانة في قلوب الناس؛ لأنها باقة عَطِرة من الآداب والأخلاق، اشتاق الناس إلى شذاها وعبيرها، قد صاغها المؤلف بعبارة سلسة محببة، كعادته رحمه الله، راجياً نفعها، وهذا مأمول بإذن الله.

الصحبة أحد أركان المنهج العملي في الإسلام:

وموضوع الرسالة الأساس هو الحديث عن الصحبة والترغيب فيها، وهي واجبة عند أهل العلم والنظر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

والصحبة: هي الطريق العملي الموصل إلى تزكية النفوس والتخلي عن رعوناتها وآفاتها، والتحلي بكمالات الصالحين، وبها يتقوَّى قلب المؤمن، وتزداد ثقته بمنهج الله تعالى، وأحب الناس إلى الله الذين يألفون ويُؤْلَفون.

وما سمي الصحابة بهذا الاسم ـ رضي الله عنهم ـ إلا لصحبتهم للنبي ﷺ، والتابعون هم أصحاب الصحابة، وهٰكذا دواليك، ما انفك أهل الإيمان عنها، فهي أصل عظيم من أصولهم، ولذلك استمر عليها شأنهم قديماً وحديثاً، كما يقول ابن عباد في «غيث المواهب».

ونرى العالم المذكور في حديث التائب الذي قتل مئة نفس، أمر قاصده أن يهجر الأرض التي كان فيها، ويذهب إلى أرض كذا، ومعلوم أن القصد ليس هو هجر الأرض حقيقة، بل هو هجر من فيها من أصحاب السوء، والتوجه إلى البيئة الطيبة التي فيها أهل الفضل والصلاح.

وسيذكر المؤلف في الفصل الأول من هذه الرسالة كمّاً لا بأس به مما ورد في شأن الصحبة وفضل المتحابين في الله من حديث مرفوع وأثر مسموع، وعلل ذلك بقوله: لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل.

ولا حاجة للإطالة في الحديث عن الصحبة، وعن أدب الصحبة، فالرسالة ستغنينا عن ذلك بما أضيف لها من قطوف أزهارٍ من رياض رسالة الأنوار، سائلاً المولى الخير العميم، وأن يصدق في «رسالة الأنوار» قول القائل:

ما الكيميا قلْبُ الحجارةِ فضَّةً بلْ أنْ تزيلَ الظلمةَ الأنوارُ

منهج العمل
ووصف النسخ المعتمدة في التحقيق

تم اعتماد ثلاث نسخ خطية لهذه الرسالة:

الأولى: من الكتب التي أوقفها السيد أحمد طه أفندي زاده على مدرسة الأحمدية بحلب، وهي اليوم في مكتبة الأسد باسم «آداب الصحبة»، تحت رقم (١٤١١٦ ـ تصوف)، وهو مخطوط يرجع إلى القرن الثاني عشر الهجري (١١٣٨هـ)، واضح النسخ، مكتوب بلونين، أسود وأحمر، وقد كتب على الورقة الأولى منها: آداب الصحبة، تأليف سيدي عبد الوهاب الشعراوي رحمة الله عليه آمين.

والرسالة سماها من سماها بذلك حسب موضوعها، وإلا.. فإننا لا نعثر على مؤلَّف للشعراني بهذا الاسم.

غير أننا نجد في فهرسة «الكتبخانة الخديوية» بمصر ما يلي:

الأنوار: تأليف سيدي القطب العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني، رتبه على ثلاثة فصول وخاتمة:

١ـ في ذكر شيء من فضل الصحبة.

٢ـ في ذكر شيء من حقوق الصحبة.

٣ـ في آداب القوم رضي الله عنهم.

والخاتمة في آداب الذكر المتفق عليها. اهـ. «فهرس الكتبخانة الخديوية» (٢/ ٦٨).

وسنرى الشعراني يسميها بذلك في السطور الأخيرة منها ويقول: تستحق أن تسمى برسالة الأنوار...

والمخطوطة الثانية: من دار المخطوطات العامرة بمصر، وهي مكتوبة في القرن الثاني عشر الهجري كذلك، كتب عليها: هذه رسالة الأنوار، تأليف الإمام العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني، وعليها تبرُّكٌ جرياً على عادتهم، غير واضح المعالم، وهي دون أختها في الوضوح، إلا أنني استدركت على مخطوطة الأحمدية ما سقط وخفي منها، وهو قليل.

والمخطوطة الثالثة: من مخطوطات المكتبة الأزهرية، وبرقم (٤٣٠٠٣)، لم يظهر زمن كتابتها، وهي كسابقتيها، وقد أفدت منها كثيراً من الاستدراكات، ورمزت لها بـ (ج).

وقد قام الدكتور عبد الرحمٰن عميرة، والأستاذ طلعت غنام بإخراج قسم كبير من هذه الرسالة وطباعتها ضمن إصدارات مجمع البحوث الإسلامية، وطبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، العدد ٦٤ من سلسلة البحوث الإسلامية، عام (١٩٧٣م) وسمياه: «المختار من الأنوار».

وقد قمت بنسخ مخطوطة الأحمدية، واتخذتها أصلاً وعارضتها بالنسختين الأخريين، وأثبت الفروق التي لها فائدة، وأغفلت الساقط والمكرر، والأخطاء النحوية الجلية، ولاسيما إن وقعت في آية أو أثر.

ومما خدمت به هذه الرسالة:

- ترجمة المؤلف ترجمة تناسب المقام.
- تخريج الأحاديث المرفوعة والموقوفة والمقطوعة وبعض من آثار التابعين.
- تذييل الرسالة بتعليقات هامة تؤكد وتشرح ما يفهم من كلام المؤلف رحمه الله.
- ترجمة الأعلام.
- شكل ما احتاج إلى شكل، وتفصيل وترقيم الرسالة.
- إعداد فهارس فنية تيسيراً للوصول إلى درر هذه الرسالة.

نماذج
من النسخ الخطية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
النور المبين وعلى سائر الانبيا والمرسلين وعلى آلهم
وصحبهم أجمعين هذه رسالة اقتضتها البطالة تشتمل
على ثلاثة فصول وخاتمة أسال الله أن ينفع بها أهل
العصر وعالمه الفصل الاول في ذكر شي من فضل الصحبة
في الله تعالى اعلم وفقني الله وإياك الى ما يحب أن
الصحبة في الله تعالى من أوثق عرى الإسلام ومن أكبر
أبواب الخير وقد رغبت العلما فيها سلفا وخلفا وأما
من حذر منها وقال أن العزلة أقرب للسلامة من
الآفات وأبعد من تحمل الحقوق في المخالطات وأجزم
للاشتغال بالطاعات فإنما ذلك في حق المريد ما دام
قاصرا فإذا انتهى سلوكه وكمل حاله بأن صار يشهد
الله مع خلقه كان الأفضل في حقه الخلطة بل الخلطة
في حق مثل هذا واجبة كما قال بعضهم لكن العارف
في أول أمره مثل هذا واجبة عليه يحن الى الوحدة كالبداية
فلا يصبر له وقت يسع الناس كما قال لرسول الله
صلى الله عليه وسلم حين انزلت عليه سورة النصر
نعلم أنه لا يقال العزلة أفضل مطلقا ثم لا يخفى أن
صحبة الأدنى للأعلى ليست بصحبة في الحقيقة
وإنما هي تعليم وخدمة إذ صاحب الانسان هو من
يقرب

يقرب من حرمه ويحيط بمقامه فإطلاق الصحبة
بين المريد والشيخ والصحابي والرسول إطلاق مجازي
لا حقيقي إذا علمت ذلك فنورد عليك شيئا من الأخبار
الواردة في فضل المتحابين في الله لأن القلب يقوى
بالاطلاع على الدليل فروى الشيخان في صحيحيهما
سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام
عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق
بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا
عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال
إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها
حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت
عيناه وروى مسلم والذي نفسي بيده لن تدخلوا
الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على
شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم وروى
أيضا ومن زار رجل أخا له في الله فأرسل الله له ملكا
على مدرجته قال أين تريد قال أريد أخا لي في
هذه القرية قال هل لك عنده من نعمة تربها قال
لا غير أني أحببته في الله قال أني رسول الله
إليك أن الله قد أحبك كما أحببته وروى ابن
عساكر وغيره سبعة في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله
رجل ذكر الله ففاضت عيناه ورجل يحب عبدا

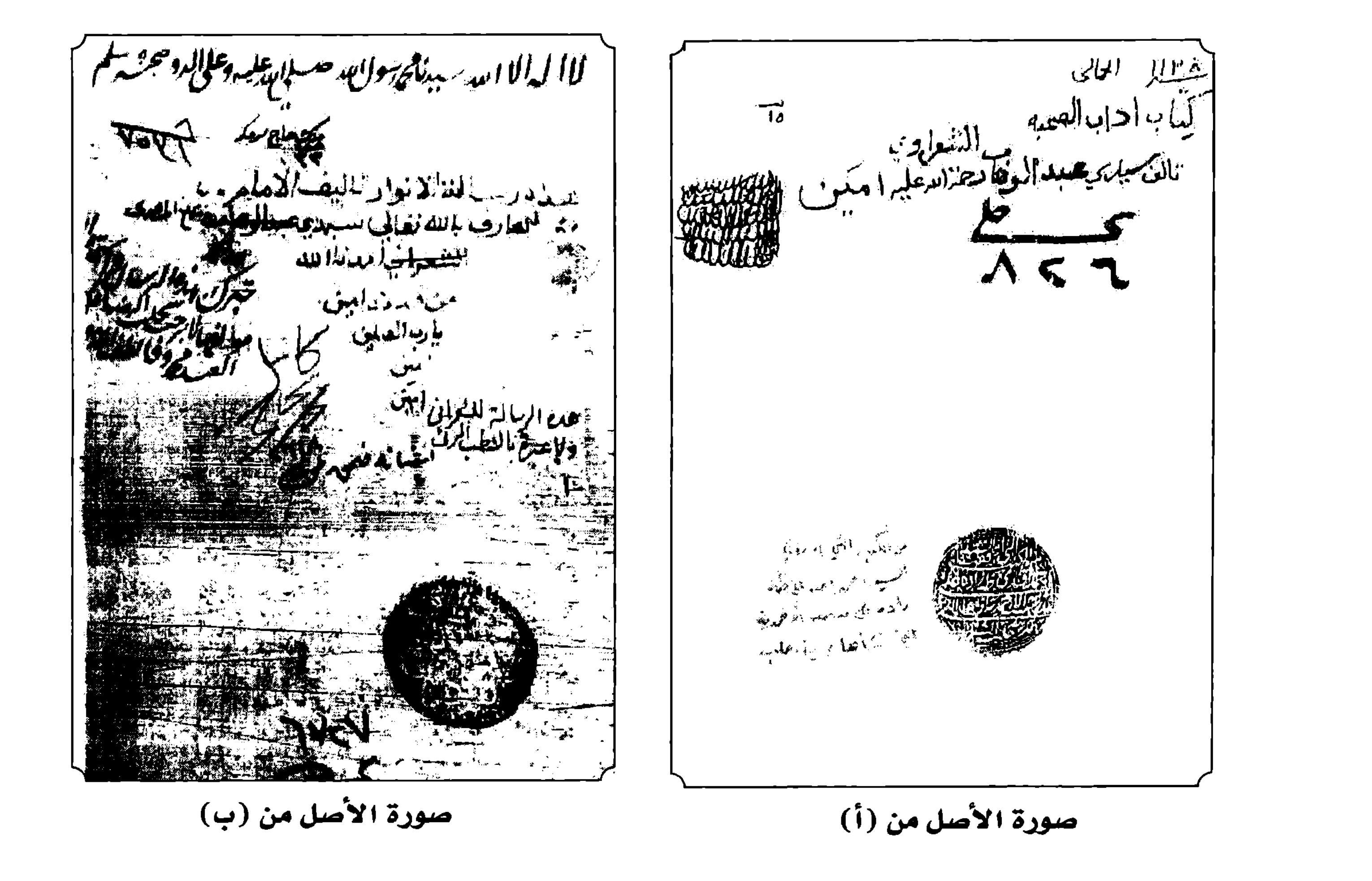
صورة الورقة الأولى من (أ)

الذكر ومنها ما هو الذكر ومنها ما هو بعد الفراغ منه فالسابق
خمسة الاول التوبة النصوح وهو ان يتوب من كل ما لا يعنيه
من قول او فعل او ارادة وفي كلامهم من ادعى التوبة ومال
الى شيء من شهوات الدنيا المباحة فهو كاذب الثاني الغسل
او الوضوء الثالث تطييب ثيابه وفمه الرابع تحرير
النية وهو ان يكون الباعث له على الذكر امتثال الامر
لا غير ذلك الخامس مصاحبة التعظيم للمذكور واما التي
حال الذكر فستة عشر الاول الجلوس على مكان طاهر كالجلوس
في تشهد الصلاة الثاني وضع الراحتين على الفخذين الثالث
استقبال القبلة ان كان يذكر وحده وان كانوا جماعة تحلقوا
الرابع تطييب مجلس الذكر الخامس والسادس دوام الاخلاص
والصدق السابع ان يكون الماكل والملبس حلالا الثامن
ان يكون الموضع مظلما التاسع تغميض العينين من الذكر
العاشر استحضار معنى الذكر الحادي عشر ان لا يشرك معه
غيره الثاني عشر نفي كل موجود من القلب سوى المذكور الثالث
عشر ان يكون جهرا الرابع عشر ان يكون بقوة تامة الخامس
عشر ان يخيل شخص شيخه بين عينيه السادس عشر اجتناب
اللحن واما التي بعد الفراغ من الذكر فخمسة الاول [illegible] النفس
لحظة الثاني ان لا يشرب حتى يمضي عليه درجتان او ثلاث
الثالث ان يسكت سكتة طويلة الرابع ترك وارد
الذكر الخامس الشكر على التيسير والاستغفار من التقصير

ثم

فهذه اداب الذكر المتفق عليها واما غير المتفق عليها فكثيرة
اوصلوها الى مائة ادب ولكن في مشايخ هذا الزمان شيخنا
يعرف للذكر عشرين ادابا تنبيه افضل صيغ الذكر في
ارادة كلمة الاخلاص فان لها اثرا عظيما لا يوجد في غيرها
من سائر الاذكار تنبيه اخر جعل بعضهم للسكتة المتقدمة
ثلاثة اداب احدها استحضار العبد انه بين يدي العظمة
مطلع عليه ثانيها جمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعرة
كحال الهرة عند اصطياد الفار ثالثها نفي الخواطر كلها
واجراء معنى الذكر على القلب تنبيه اخر قد علم ان
الصواب في حق الذاكر اذا سكت وسمع قولا ينشد كلام
القوم ان لا يتحرك ولا يتلفظ او مدح النبي صلى الله عليه
وسلم ان يصلي سرا لا جهرا وهذا اخر الرسالة التي اقتضاها
البطالة لعمري مع صغر حجمها انها كثيرة الفوائد لا يرغب
عنها الا معرض وحاسد احتوت على ما لم تحو الكتب الكبار حتى
ان تسمى برسالة الانوار لاختصارها وجمع ادابها فهي فريدة
عزيزة اسال الله تعالى ان ينفع بها من كتبها او قراها او سمعها
وان يجزي خيرا من اطلع على هفوة فاصلحها وان يصلي ويسلم
على مولانا محمد الكريم الامين وعلى سائر الانبياء والمرسلين وعلى
الهم وصحبهم اجمعين عدد ذكر الذاكرين وسهو الغافلين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى
يوم الدين تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله رب العالمين

صورة الورقة الأخيرة من (أ)



صورة الأصل من (أ)

صورة الأصل من (ب)

صورة الأصل من (ج)

الصفحة الأولى من (ج)

ترجمة المؤلف

قبل الحديث عن ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى، تجدر الإشارة إلى أن الشعراني وضع كتاباً عظيماً سماه بـ«لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» وهذا الكتاب يكاد يكون صورة حية لحياة هذا الإمام العظيم، فهو لم يكتفِ بالترجمة لنفسه وبيئته فحسب، بل كتب كذلك عن أحاسيسه ومواجيده، لذلك يعدُّ هذا الكتاب أصدق ما قيل في ترجمته، كيف لا وقد كتبه بخط يده، وهو أعلم بالشعراني من كل أحد.

اسمه ونسبه:

أبو محمد[1]، عبد الوهَّاب بن أحمد الشعراوي الشافعي الشاذلي المصري المولد والوفاة، نزل بعض أجداده بالمغرب بمدينة تلمسان، واجتمع جدُّه الشيخ موسى ابن السلطان أحمد بالشيخ أبي مدين المغربي، فبعدما ربَّاه وأدَّبه، وجهه إلى السفر إلى صعيد مصر، فكان دخول أجداده إلى مصر في نهايات القرن السادس تقريباً.

والشعراوي والشعراني نسبة صحيحة إلى ساقيه أبي شعرة، بلد المؤلف، قرية من قرى المنوفة في صعيد مصر.

---

(١) كذا قال الزبيدي في «التاج» عند حديثه عن بلد المؤلف الآتي ذكرها:

وساقية أبي شعرة من ضواحي مصر، وإليها نسب القطب أبي محمد، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي نسباً الشعراوي، قُدِّس سره، صاحب السرِّ والتآليف، توفي بمصر سنة (٩٧٣هـ). وكذا نُقِل ذلك عن الشيخ ناصر الدين اللقاني، وسيأتي نصه.

وقيل: أبو المواهب، وقيل: أبو عبد الرحمٰن.

والشعراني قرشي هاشمي، نسبه يعود إلى محمد ابن الحنفية، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهو شاذلي المشرب، شافعي المذهب، كما ذكر في «طبقاته» و«مِنَنِهِ» وغيرها من تآليفه.

مولده ونشأته:

ولد في بلدة قلقشندة بمصر، قرية جدِّه لأمِّه، سنة (٨٩٨هـ)، ثم نقل إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة بعد أربعين يوماً من مولده، وهذه السنة هي الأرجح في مولده، فهو قد انتقل إلى مصر وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة عام (٩١١هـ) كما ذكر في «منته» رحمه الله.

توفي والده سنة (٩٠٧هـ)، وكذا توفيت والدته قبل قدومه إلى القاهرة، فنشأ يتيماً قد تولاه الله بعين عنايته، ويَعُدُّ المؤلف هذه النشأة من فضل الله عليه.

وقبل أن يناهز الحلم منَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز، وأضاف إليه حفظ العديد من أمهات المتون، كمتن أبي شجاع والآجرُّومية، وكان قد قرأ ما حفظ تحليلاً على يد أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة أبيه.

وفي سنة (٩١١هـ) دخل الشعراني القاهرة العامرة بالعلم والعلماء يومئذٍ، وكان دخوله هذا مرحلةً مفصلية في حياته، فالشعراني نشأ في الريف، ويعد نقلته هذه إلى المدينة من أعظم المنن، ويستشهد عليها بقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

درس الشعراني في الأزهر على الأرجح، فهو قبل أن يذكر نزوله في مسجد الغمري، ذكر أنه قرأ وحفظ «المنهاج» للنووي، و«ألفية ابن مالك»، و«التوضيح» لابن هشام، و«جمع الجوامع»، و«ألفية العراقي»، و«تلخيص المفتاح»، و«الشاطبية»، و«قواعد ابن هشام»، وغير ذلك مما سمَّاه

بالمختصرات، إلى أن ارتفعت همته لحفظ «الروض»، مختصر «الروضة»، لكونه أجمع كتاب في مذهب الإمام الشافعي كما ذكر.

ثم أقام بجامع الغمري، وقرأ الشروح والمطولات فيه، وكان إمامه الشيخ أمين الدين محدثاً، قرأ عليه من علوم الحديث الشيء الكثير، واتخذ من هذا المسجد خلوة يتعبد الله عز وجل ويبتهل فيها، يتعلم ويعمل بما تعلم، حتى غدا شاباً ناشئاً في طاعة الله عز وجل.

مكانته العلمية:

إن هذه الكتب التي نعتها المؤلف بالمختصرات وحفظها وقرأها في مطلع حياته، لو أحاط بها رجل من أهل زماننا.. لنعت بنعوت العلماء والفضلاء، بل إن من قرأ دونها بكثير.. يتبوّأ ويتصدر المجالس، ويشار إليه بالبنان.

ونقل المؤلف عن شيخه علي الخواص قوله:

قد أجمع أشياخ الطريق على أنه لا يجوز لأحدٍ التصدر لتربية المريدين إلا بعد تبحره في الشريعة وآلاتها، كما عليه السادة الشاذلية... بحيث يقطع العلماءَ في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة، فإن لم يتبحر كذلك.. لا يأخذون عليه العهد أبداً، وهذا الأمر قد صار أهله في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر[1].

وكثيرون هم من ينظرون إلى الشعراني وأمثاله نظرة دونية من الناحية العلمية، ولننظر ونقارن بين ما اطلع وقرأ ودرس المؤلف ـ والذي يمثل هذا التيار ـ مع اطلاعات المنتقدين على الصوفية علومهم وأحوالهم، والإطالة في هذا المقام محمودة العواقب إن شاء الله تعالى.

---

(١) «المنن الكبرى» ٤٥.

١ـ القرآن وعلومه:

مرّ آنفاً أن المؤلف حفظ القرآن وقرأ «الشاطبية» وهو دون سن الحلم، وقد طالع من كتب التفسير[(١)]: «البغوي»، و«الخازن»، و«ابن عادل»، و«تفسير الكواشي»، و«ابن زهرة»، و«القرطبي»، و«ابن كثير»، و«البيضاوي»، و«ابن النقيب المقدسي»، وهو كما يقول: مئة مجلدة ضخمة، ولم يطالع أوسع منه، وتفسيري الإمام الواحدي «البسيط» و«الوجيز»، وتفسيري الشيخ عبد العزيز الديريني «الكبير» و«الصغير»، و«الجلالين»، و«الدر المنثور»، و«تفسير الإمام سنيد بن عبد الله الأزدي»، وقال عنه: إنه تفسير نفيس، وقد جرّد المؤلف أحاديثه وآثاره في مجلد، و«الزمخشري» بحواشيه، وأعظمها «حاشية الطيبي»، و«الانتصاف» لابن المنير، و«الإنصاف» للعراقي، و«مختصر الزمخشري» لابن هشام، و«البحر المحيط»، و«إعراب تلميذه السمين الحلبي»، و«إعراب السفاقسي»، و«حاشية الشيرازي»، وقطعة من «حاشية الشيخ فخر الدين الجاربردي»، وقطعة من «حاشية البابوني»، وحاشيتي «السعد التفتازاني» و«الشريف الجرجاني»، و«حاشية أبي زرعة العراقي»، و«تفسير البيضاوي» مع «حاشية الشيخ زكريا الأنصاري»[(٢)].

وكان قد سخر الله له الشيخ شمس الدين المظفري يأتيه بكل كتاب طلبه من خزائن مصر.

هذا في كتب التفسير، ومن يتصدر للتفسير اليوم قد لا يعرف ولم يطالع كثيراً من هذه الكتب التي منَّ الله تعالى على المؤلف بقراءتها.

٢ـ الحديث وعلومه:

بعد نزوله في مسجد الغمري قرأ على إمامه «الكتب الستة»، و«الغيلانيات»،

---

(١) «المنن الكبرى» ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) وكل كتاب قرأه عدداً من المرات، وعلى سبيل المثال: قرأ «الجلالين» ثلاثين مرة، و«تفسير الكواشي» عشر مرات، و«البيضاوي» خمس مرات، وهكذا..

و«مسند عبد بن حميد»، وأجازه بجميع مروياته، وقد كان له سند عالٍ أخذه عن الحافظ ابن حجر وغيره[١].

وقرأ: «صحيح ابن خزيمة»، و«صحيح ابن حبان»، و«مسند الإمام أحمد»، و«موطأ الإمام مالك»، و«معاجم الطبراني الثلاثة»، و«جامع الأصول» لابن الأثير، و«الجامع الكبير» للسيوطي، و«الصغير» وزياداته، و«سنن البيهقي»، وقام باختصارها، و«المنتقى» لمجد الدين ابن تيمية، وهو أصل كتابه «كشف الغمة»، و«الهدي النبوي» لابن القيم، و«دلائل النبوة» للبيهقي، و«المعجزات» و«الخصائص» للسيوطي، وغيرها من الأجزاء والمسانيد التي لا تحصى[٢].

وقرأ في شروحه: «فتح الباري»، و«الكرماني»، و«البرماوي» و«العيني» و«القسطلاني» من شروح «صحيح البخاري»، و«شرح القاضي عياض لصحيح مسلم»، و«شرحه للشيخ زكريا الأنصاري»، و«شرح الترمذي» لابن المقري المكي.

٣ـ كتب الفقه وتوابعه:

قرأ «شرح الروض» للشيخ زكريا الأنصاري، و«شرح ابن سولة»، وكتاب «الأم» للشافعي، و«مختصر المزني»، و«مسند الإمام الشافعي»، و«شرحه» للجاولي، و«المحلى» لابن حزم، و«مختصرة الشيخ محيي الدين ابن العربي»، و«الحاوي» للماوردي، و«الأحكام السلطانية»، و«فروع ابن الحداد»، و«الشامل» لابن الصباغ، و«المحيط» لأبي محمد الجويني، و«الفروق» له، و«الوسيط» و«البسيط» و«الوجيز» للغزالي، و«الرافعي الكبير»، و«الروضة»، و«شرح المهذب» (المجموع)، و«تكملة السبكي» عليه، و«شرح مسلم» للنووي، و«المطلب» لابن رفعة مع مراجعات الشيخ كمال الدين الطويل لمشكلاته، و«المهمات» للإسنوي، و«التعقبات» لابن العماد، و«القوت» للأذرعي،

---

(١) «المنن الكبرى» ٥٨.

(٢) «المنن الكبرى» ٦٨.

و«الخادم» للزركشي، و«العمدة» و«العجالة» لابن الملقن، و«شرح المنهاج» لابن قاضي شهبة، و«شرح الإرشاد» لابن أبي الشريف، و«شرحه» للجوجري، و«شروح التنبيه» لابن يونس والزنكلوني ولابن الملقن وللجلال السيوطي، و«شرح المنهاج» للمحلي، مع تصحيح ابن قاضي عجلون، و«شرح البهجة» للعراقي، و«شرحها» للشيخ زكريا، و«قواعد الشيخ العز بن عبد السلام»: «الكبرى» و«الصغرى»، و«قواعد العلائي»، و«قواعد الزركشي» واختصرها، و«الأشباه والنظائر» لابن السبكي، و«الألغاز» للإسنوي، وغيرها الكثير[١].

٤ـ كتب الأصول والقواعد والفتوى:

منها: «شرح العضد»، و«شرح منهاج البيضاوي»، و«المستصفى» للغزالي، و«الأمالي» لإمام الحرمين، و«شرح المقاصد»، و«شرح الطوالع والمطالع»، وكتاب «سراج العقول» للقزويني، و«شرح العقائد» للتفتازاني، و«حاشيته لابن أبي الشريف»[٢].

وكتب القواعد ذكرت في كتب الفقه سابقاً.

ومن كتب الفتوى: «فتاوى ابن أبي زيد» المروزي، و«فتاوى القفال»، و«فتاوى القاضي حسين»، و«فتاوى الماوردي»، و«فتاوى الغزالي» وإمامه، و«فتاوى ابن الصباغ»، و«فتاوى ابن الصلاح»، و«فتاوى ابن عبد السلام»، و«فتاوى النووي»، و«فتاوى السبكي»، و«فتاوى البلقيني»، و«فتاوى شيخه زكريا الأنصاري»، و«فتاوى الشيخ شهاب الدين الرملي»، وغيرها[٣].

٥ـ كتب اللغة:

طالع: «صحاح الجوهري»، و«القاموس»، «والنهاية» لابن الأثير، و«تهذيب الأسماء واللغات»، وقد طالع هذا الكتاب خمس عشرة مرة.

---

(١) «المنن الكبرى» ٦٧.

(٢) «المنن الكبرى» ٦٩.

(٣) «المنن الكبرى» ٦٩.

٦ـ كتب السير:

طالع: «سيرة ابن هشام»، و«ابن إسحاق»، و«الكلبي»، و«أبي الحسن البكري»، و«سيرة الطبري»، و«الكلاعي»، و«ابن سيد الناس»، و«سيرة الشيخ محمد الشامي» التي جمعها من ألف كتاب، وهي أجمع كتاب في السير كما يرى المؤلف.

٧ـ كتب التصوف:

كثيرة جداً، منها: «القوت» لأبي طالب المكي، و«الرعاية» للمحاسبي، و«الحلية» لأبي نعيم، و«رسالة القشيري»، و«عوارف المعارف» للسهروردي، و«الإحياء» للغزالي، وكتب اليافعي كلها، و«الفتوحات» للشيخ الأكبر، وقد اختصرها وحذف المدسوس على الشيخ فيها، و«رسالة النور» للشيخ أحمد الزاهد، و«منح المنة» لتلميذه محمد الغمري شيخ المؤلف، و«منازل السائرين» للهروي، و«الفصوص» للقاشاني، و«شعب الإيمان» للقصري.

ويكفي أن نعلم أن شيخ الإسلام شهاب الدين الحنبلي الفتوحي، حين قُدِّم له كتاب «العهود» للمؤلف كي يكتب بمنعه بعد الدسِّ على المؤلف قال: كيف أكتب على سؤال يتعلق بشخصٍ طالع من الكتب ما لا أعرف له اسماً، فضلاً عن الخوض فيها! مع أنه لو ادعى تأليفها.. لم يجد له في مصر منازعاً؟!

هذا طرف مما طالعه وقرأه المؤلف رحمه الله تعالى، وهناك الكثير من الكتب التي لم أذكرها خشية الإطالة، فانظرها في «المنن الكبرى»[١].

مكانته الاجتماعية:

لقد تمتع هذا الإمام بمنزلة اجتماعية مرموقة، وسيتبين ذلك جلياً عند الحديث عن أشياخه، والكلام عن المحن التي مرَّ بها وعاناها، وعلى رأسها

(١) ككتب المذاهب التي ذكرها ٧٠.

مسألة الحسد وما تفرّع عنها من مشكلات ما زالت تآليف الشعراني تئِنُّ من وطأتها.

ويكفينا أن نعلم أن السلطان سليماً، خليفة المسلمين يومئذٍ، والعالم الإسلامي في أوسع رقعة، زار مصر يوماً، فكانت زيارته عيداً، وتبارى الأمراء والكبراء والعلماء والفقهاء بالسعي إلى بابه، وبقي الشعراني منزوياً يتوارى عن الساحة، ويفضل جانب الظلّ، وبلغ السلطان سليماً ذلك، والشعراني يومها اسمٌ علا نجمه، وامتد صيته، فما كان من هذا السلطان العظيم إلا أن يسعى بأبهته وفخامته إلى ذاك العالم العامل العابد المتبتل، وزاره في زاويته وسط العجب الذي أبداه كل من سمع بهذه الكرامة.

وكان للشعراني جاه لا يرد، وهيبة وجلالة تحمل القاصي والداني على تلبية أمره ومهما علا شأنه، وقصصه في بذل الجاه للأمراء قبل الفقراء كثيرة جداً.

وزاره يوماً الوزير الأعظم علي باشا قبيل سفره إلى تركيا ليقول له: نحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة ترفعها إليه؟ فما كان جواب الشعراني إلا أن قال معلماً ومؤدباً: ألك حاجة عند الله؟ إننا مقربون إلى حضرته.

أشياخه ومربّوه:

تتلمذ رحمه الله على خيرة أهل عصره من العلماء والصالحين، فالتقى بالإمام السيوطي وهو صغير السن، ولازم وقرأ على الشيخ زكريا الأنصاري مدة طويلة كتباً كثيرة، وكان الشيخ زكريا يجلّه ويقربه إليه، وأخذ عن ناصر الدين اللقاني، وشمس الدين الدواخلي، والجوجري، ونور الدين السنهوري، وملا علي العجمي، والمحدث المقرئ شهاب الدين القسطلاني، ونور الدين الأشموني، وشمس الدين الديروطي، والشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري المحدث المقرئ، وكان صاحب أعلى سند بالكتب

الستة وغيرها، والشيخ محمد المغربي، وغيرهم الكثير ممن ذكرهم في نهاية كتابه «الطبقات»[١].

غير أن الشعراني ماز ثلاثة من أشياخه وجعلهم في مقدمة من انتفع بهم وهم الشيخ علي الخواص، والشيخ علي المرصفي، والشيخ محمد الشناوي، وكان الخوّاص شيخ الشعراني بحق، فالشعراني كان سبباً رئيساً لتعرف الناس عليه، فاسم الخواص والشعراني مقترنان، ولن تظفر بكتاب للشعراني إلا وللخواص نصيب فيه.

ومن قرأ ترجمة الخواص[٢] عجب لها أشد العجب، فهذا الأمي كان منارة هدى في عصره، وكان الشعراني صنيعته وحجته على الخلق، وكان الخواص حجة الله على خلقه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

كان الخواص غواصاً في بحار النفس، خبيراً بأحوالها، بصيراً بعللها وأمراضها، مربياً وشيخاً مسلكاً ليس له نظير، وقد أدرك الشعراني هذا كله، فانطوى تحت جناح الخواص، ونسي حظ نفسه، وأفنى مراده في مراد شيخه، وعندما يتجرد الإنسان من الإرادة، ويختار العبودة المطلقة، تتفجر ينابيع الكرم، وعندما يلهج اللسان بإعلان الفقر الملازم لوصف الإنسان يجيش بحر العطاء.

زهرة حياة الشعراني كانت في السنوات العشر التي قضاها مع شيخه الخواص، فبعد أن حاز الشعراني من علوم الشريعة وعلوم الآلة، وقرأ المتون والحواشي، وجمع من نوادر التأليف ما جمع، أمره شيخه الخواص ببيع كتبه كلها والتصدق بثمنها! وكانت كما يذكر الشعراني كتباً نفيسة، يقول

---

(١) وانظر «المنن الكبرى» ٥٨ ـ ٥٩، وفيها ذكر عدداً من أشياخه وما قرأ عليهم من كتب العلم.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١٥٠، «شذرات الذهب» ٨/ ٢٣٣، «المنن الكبرى» ٤٧. (ت ٩٣٩هـ).

المؤلف: فصار عندي التفات إليها لكثرة تعبي فيها، فقال لي (الخواص): اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل، فإنهم قالوا: ملتفت لا يصل.

وفعل الشعراني ذلك، وترادفت عليه العلوم الوهبية بإذن الله تعالى، وآل إلى ما آل إليه من مراتب أهل الكمال والإحسان.

وقد وفق الله سبحانه المؤلف للاستفادة من جميع أشياخه، ومن أصحابه في الطريق، كأفضل الدين الأحمدي، بل ومن مشايخ البركة على حد قوله، فقد كان يفوز منهم بصالح دعائهم، ويشغل قلوبهم بالتوجه إليه، ويرد سبب هذا النفع أنه كان يرى أن الناس كلهم خير من عبد الوهّاب، وما كانت النِّدِّيَّة في الصحبة لتحجزه عن طلب النفع، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها.. فهو أحق بها.

زاوية الشعراني:

لقد كان للزوايا والربط في التاريخ الإسلامي دور هام جداً في بعث الأمة من سباتها، وهذه سنة أحياها الإمام الغزالي رحمه الله، والزوايا كانت أشبه ما تكون بجامعة متنوعة الاختصاصات، تخرج فيها العظماء والعلماء والدعاة إلى الله.

والسبب الرئيس في تميز الزوايا عن غيرها: أنها كانت تؤمِّن لقاصديها كل احتياجاتهم، وتضيف إلى تعليمها الإشراف التربوي والأخلاقي، وتستضيف كل النازلين، فهي مسجد للصلاة وإقامة الشعائر الدينية، ومدرسة لتخريج طلبة العلم، ومنقاة لهم من آفات وعيوب نفوسهم، وتكية للفقراء والمحتاجين، ويمكن القول: هي مسجد عظيم ألحقت به دور متعددة الاختصاصات، تلبي حاجة الجميع.

وقد أقام الشعراني بعد خروجه من مسجد الغمري في مدرسة «أم خوند»

وقضى بها أياماً طابت له ثمارها بطاعة الله عز وجل ومرضاته، وفيها فتح ذراعيه لكل الوافدين عليه من طلاب العلم والحقائق.

ثم انتقل الشعراني إلى مسجد عظيم أُوقف من قبل القاضي محيي الدين عبد القادر الأزبكي، وأَوقف معه أرضاً عظيمةً بنى عليها الشعراني زاويته العظيمة.

وأقبل على هذه الزاوية آلاف المريدين وطلبة العلم، وقد كفل الشعراني بكل متطلبات معيشتهم، وكان هذا من الأوقاف التي فرضها السادة والأمراء لهذه الزاوية.

ومن العجيب أن الشعراني لم يكتف بتدبير شؤون طلابه فحسب، بل كان يزوِّج بعض مريديه ويزودهم بكل احتياجات وتكاليف هذا الزواج، وكان يرسل أفواجاً من تلامذته إلى الحج، وكان يقوم بإعانة العلماء والفقهاء بالغذاء والكساء، وكان مضيافاً يكرم الوافدين عليه، ولنا أن نقول: كان الشعراني عُمَريَّ الخلق، يرى لكل صغير وكبير من المسلمين حقاً في عنقه.

يقول المناوي: كان يسمع لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً.

وسبب ذلك أن تلاوة القرآن وقراءة الحديث ودراسة العلوم الشرعية والعربية كانت لا تنقطع في هذه الزاوية المباركة، حتى غدت هذه الزاوية كما يقول الأستاذ طه عبد الباقي: منافساً خطيراً للأزهر الشريف، وينقل عن المؤرخ الشبلي قوله: لم يُر في مشارق الأرض ومغاربها خيراً من زاوية الشعراني، علماً وفضلاً وتصوفاً وأدباً.

لقد كان لهذه الزاوية أثر باهر في مصر كلها، ولا نبالغ إن قلنا: إن صيتها وصل إلى إستنبول عاصمة الخلافة الإسلامية يومئذٍ، وهذه الشهرة المترامية الأطراف ولّدت أمراً مزعجاً للغاية، فقلما ترى صاحب نعمة إلا وهو محسَّد، وهذا ما حصل مع الشعراني.

الاتهامات التي رمي بها الشعراني:

في الحقيقة البحث في هذه الفقرة بالذات طويل جداً، فالشعراني شخصية تعرضت لكثير من الاتهامات، بدأت في عصره، وما زالت إلى يومنا هذا، لذلك سيكون الكلام في الخطوط العريضة لهذا البحث، وتكاد تتلخص بنقاط هي:

١ـ الفكر الصوفي الذي تمتع به الإمام الشعراني.

٢ـ مشكلة الدس التي تعرض لها في مؤلفاته وكلامه.

٣ـ خروجه عن المذاهب الأربعة وادعاؤه الاجتهاد المطلق.

أولاً: الفكر الصوفي الذي تمتع به الإمام الشعراني:

ـ هل الشعراني كان صوفياً فحسب؟

كثيراً ما طرقت أسماعنا هذه الكلمة: الشعراني صوفي، دوره منحصر في صفوفهم، لا علاقة له بالعلماء.

وهذه الكلمة الممجوجة كنت أسمعها من الكثيرين من أهل العلم مربين وطلاباً، وأعجب لها، فإن سألت قائلها: هل اطلعت على مخلَّف الشعراني العلمي؟ قال: نعم، وسرد لي بعض كتب الرقائق التي ألفها الشعراني، ودون اطلاع عليها أيضاً، فإن ذكرت له طرفاً من مخلَّفه العلمي، وذكرت له شيئاً من علومه وثناء أهل العلم عليه.. أبدى أشد العجب، والعجب ممن يلقي كليمة في تقييم رجل من رجال التاريخ الذين لعبوا أبرز أدوار الصحوة في عصورهم دون تحقيق أو تمحيص!

وسنرى في هذه الأسطر القليلة الآتية رأي أهل العلم في هذا الإمام، هل كان صوفياً فحسب، أم هو العالم المشارك الذي ماز عن أهل عصره بعلمه وعمله؟

شهادة علماء عصره:

ألف الإمام الشعراني كتاباً في أدلة الفقهاء، سماه «كشف الغمة عن جميع الأمة»، اطلع عليه الشيخ الفقيه العلامة شهاب الدين الرملي الشافعي فقال: وقفت على هذا المؤلف الغريب، والمجموع العجيب، فرأيته كتاباً لا ينكر فضله، ولا يختلف اثنان في أنه ما صنف مثله[١].

وقال فيه شيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي الحنفي: وبعد: فقد وقف العبد الضعيف، على هذا المجموع اللطيف، المفرد المنيف، وتأملته فإذا هو محتوٍ على نخب حقائق العارفين، وزبد كنوز الواصلين، ولقد توج مؤلفه بتاج لطائف التحقيق. . . لقد أبدع مؤلفه وأغرب، وأتى بما هو من العجاب أعجب[٢].

وكذا أثنى عليه الشيخ شهاب الدين بن الشبلي الحنفي، وناصر الدين الطبلاوي الشافعي، وناصر الدين اللقاني، وشيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي، وعبد القادر المالكي، وشهاب الدين عميرة الشافعي، وهم وجه علماء مصر يومئذٍ.

وألف كتاباً في السُنَّة سماه «المنهج المبين» أثنى عليه أهل العلم ثناء باهراً، قال فيه ـ على سبيل المثال ـ الشيخ ناصر الدين اللقاني:

ومؤلفه المحقق الفهامة، شيخ الحقيقة، وأستاذ الطريقة، الجامع بين المنقول والمعقول، والمرجع والتعويل عليه فيما يفتي به ويقول، سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو محمد، عبد الوهاب الشعراني الشافعي، المرشد المسلك المربي، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

يقول الشعراني عندما اجتمع بالشيخ اللقاني: ولما اجتمعت به قال لي: إنما صرحت باسمك ومدحتك تكذيباً لمن شاع عني أنني لا أعتقدك.

---

(١) «المنن الكبرى» ٧٢.

(٢) المصدر السابق.

وكذا أثنوا على كتابه «العهود» وكتابه «الجوهر المصون» وقال فيه الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي: وهو تأليف سيدنا ومولانا خاتمة أهل الشريعة والحقيقة في عصره، الشيخ عبد الوهاب، أدام الله عزه وعلاه، وبعين عنايته حرسه وتولاه، ومتَّع بطول حياته الأنام، وكبت أعداءه الحسدة اللئام[١].

ويقول عنه تلميذه العلامة الحافظ المؤرخ عبد الرؤوف المناوي: هو شيخنا الإمام، العامل العابد، الزاهد، الفقيه، المحدث، الأصولي، الصوفي، المربي المسلك..[٢].

ولا ننسى إذْن شيخه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري له بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف كذلك.

مؤلفات الشعراني شاهد حي:

ثم إن ما خلَّفه هذا الحبر الهمام من مؤلفات في علوم شتى لَأكبرُ شاهد يرد تلك القالة التي لا يُبتغى بها وجه الله، وإنما يراد منها الانتقاص والذم لهوى يتبع، فقلَّما ترى علماً من علوم الشريعة إلا وللمؤلِّف كتاب أو كتب فيه، ومؤلَّفه هذا جاء به بالجديد المبتكر الذي لم يسبق إليه، والكلام هنا طويل، أمسك عنه في هذه العجالة، وسيأتي الحديث عن مؤلفاته لاحقاً إن شاء الله.

جهل صاحب هذه القالة:

إن الشعراني رحمه الله كتب عن الفقهاء الذين ينكرون على الصوفية، وكتب عن الصوفية الذين ينكرون على الفقهاء فقال:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «شذرات الذهب» ٨/ ٣٧٢.

واعلم ـ يا أخي ـ أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والصوفية إنما هو بين القاصر من كل منهما وبين مثله، وإلا.. فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين، والعارفون يسلمون للعلماء.. وقال القوم: كل حقيقة تخالف ظاهر الشريعة.. فهي باطلة نصرةً لظاهر الشرع، وإلا.. فالحقيقة من أصلها لا تكون إلا موافقة للشريعة[١].

وهو القائل رحمه الله: ينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة الطريق فمنعوا مطالعته وقالوا: إنه حجاب جهلاً منهم[٢].

وهو القائل: دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف؛ فإنه يخطئ[٣].

إذاً، كل العجب ممن يتهم الشعراني بانفكاكه عن ساحة أهل العلم كفقيه أو محدث أو نظّار، وإنما هو صوفي مربٍّ، بل إن للشعراني آراء في مؤلفاته الفقهية تدل على سعة اطلاعه وأنه صاحب نظر ورأي.

وانظر حديثه عن رحمة التعدد المذهبي، وعن عدم جزمه بكل ما فهمه عن إمامه في «لطائف المنن» ص ٦٣ ـ ٦٤.

وكان الشيخ زكريا الأنصاري يقول: إذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم.. فهو فقيه جاف[٤].

---

(١) «المنن الكبرى» ٦٢.

(٢) «شذرات الذهب» ٨/ ٣٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «الطبقات للشعراني» ٥.

ثانياً: هل دُسَّ على الشعراني في كتبه؟

قبل الكلام عن هذه المسألة التي ما زالت آثارها السلبية إلى يومنا هذا، يجدر بنا أن نعلم أنَّ الشعراني وقع ضحية لحسد العلماء والكبراء قبل العامة، وهذا أمر لا يخلو منه صاحب نعمة، فقد وقع الدس قديماً على كتب الله سبحانه وتعالى، فكان أهل الأهواء والضلال يبدلون الكلم عن مواضعه ويحرفونه، وقد وقع الدس على سيد الوجود سيدنا محمد ﷺ، فكذبوا عليه جملة من الأحاديث والأخبار التي تبارى أهل الحديث ـ والحمد لله ـ في كشفها وبيان زيفها.

وقد نسب أهل الكفر لله عز وجل ما لا يليق من زوجة وولد، وفقر وجبر وغير ذلك، ونعتوا الأنبياء ورموهم بالسحر والكذب والكهانة والجنون.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» ويروي لنا الشعراني المحن التي تعرض لها أهل التصوف عبر التاريخ في مقدمته النفيسة لكتابه «الطبقات»، ويذكر لنا أسماء اتهمت بالعظائم ونالها الحسد حتى طالب الحاسدون بقتلها، منها ودون حصر: شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، والعارف بالله أحمد بن الرفاعي، والإمام أبو الحسن الشاذلي، الإمام الغزالي، بل وكلٌّ من الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل وأبي حنيفة ومالك والشافعي، وكذا الحكيم الترمذي، وعبد الله بن أبي جمرة، ومحمد بن الفضيل؛ لأنه كان على مذهب أهل الحديث، وغيرهم الكثير[١].

والشعراني تبوّأ مكانة اجتماعية بين الناس ليس لها نظير، ومضى الحديث عن طرف منها، بل إن الأمر وصل إلى التفكير في قتل هذا الإمام كي يخلو الجو لأصحاب الأهواء وطلاب المراتب الدنيوية، بعدما فشلوا في تكفيره وإخراجه من الملة.

---

(١) راجع مقدمة «الطبقات الكبرى» للمؤلف، و«المنن الكبرى» ٦٢٤.

فلا عجب بعد ذلك أن نرى الدسّ قد وقع في مؤلفات الشعراني، وفي حياته قبل مماته، كما نصَّ هو على ذلك في العديد من كتبه وفي مواطن شتى، ومن ذلك:

يقول المؤلف في خاتمة كتابه «لطائف المنن»(١):

أرجو من مدد رسول الله ﷺ أن يحمي هذا الكتاب من كل عدو وحاسد يدس في فواصله أو غضونه ما يخالف ظاهر الشريعة لينفر الناس عن المطالعة فيه، كما فعلوا في كتابي المسمى بـ«البحر المورود» وفي مقدمة كتابي المسمى بـ«كشف الغمة». . فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأشيعوه بقصد صيانة الناس عن الوقوع في عرضي بغير حق.

وقال فيه أيضاً(٢): فكل قليل يحرفون عني مسائل لم أقل بها قط، ثم يكتبون بها سؤالاً ويستفتون عنها العلماء، فيقولون بحسب السؤال، ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي بذلك أجور لا تحصى.

وكان أشياخ زمانه يلحظون الفرق بين خطه وخط المغرضين، وكان يدافع عن نفسه بالنسخ الأصلية الموجودة عنده.

ويقول رحمه الله: فكذب ـ والله ـ وافترى من أشاع عني من الحسدة أنني أشطح في أفعالي وأقوالي وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة، مع أن أحداً من هؤلاء الحسدة لم يجتمع بي قط.

إن الشعراني نفسه كان يحارب الدس الذي وقع لغيره من العلماء، وكان يثبت وقوع الدس في كتب السالفين من أهل العلم، ففي معرض حديثه عن الشيخ محيي الدين يقول:

---

(١) «لطائف المنن» ٦٩٠.

(٢) «لطائف المنن» ١٨٠.

وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور.. فهو مدسوس عليه، كما أخبرني بذلك سيدي الشيخ أبو الطاهر المغربي نزيل مكة المشرفة، ثم أخرج لي نسخة «الفتوحات» التي قابلها على نسخة الشيخ بخطه في مدينة قونية، فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت «الفتوحات»(١).

ولكننا أمام إشكال لا بد من بيانه:

عندما يعرض لنا نص مشكل من أئمة التصوف، لا يجوز لنا أن نعجل ونرمي صاحبه بالكفر والزندقة، أو الجهل والتخريف، بل لا بد من وقفة، فقد يكون سبب هذا اللبس عدم فهم مصطلحهم رضي الله عنهم، يقول المؤلف:

وقد يكون سبب الإنكار جهل المنكر بمصطلح القوم رضي الله تعالى عنهم، وعدم ذوقه لمقاماتهم... فالعاقل من ترك الإنكار، وجعل ما لم يفهمه من جملة مجهولاته.

وربما تكلم العارف في نظمه أو غيره على لسان الحق تبارك وتعالى، وربما تكلم على لسان رسوله ﷺ(٢).

أما بشأن العبارات المزرية والسمجة الموجودة في بعض كتبه: فبداية لا نقول شيئاً قبل التحقق من نسبتها إلى المؤلف، غير أننا أمام بعض العبارات التي طبعت للمؤلف في كتابه «الطبقات»، وتحديداً في الجزء الثاني منه، ما تقشعر منه الأبدان، وتميل النفس إلى كونه من الدس الذي تحدث عنه المؤلف رحمه الله تعالى، أكرم الله الأمة بإخراج هذه الكتب محققة

---

(١) «اليواقيت والجواهر» ١/٧، وأطال الحديث في هذا الموطن عن الدس الذي وقع في كتبه فانظره، وتجدر الإشارة أن الحسدة قتلوا شيخه الخواص في حياته، وتلميذه المناوي بعد وفاته، وحاولوا قتله مراراً فنجاه الله منهم.

(٢) «المنن الكبرى» ١٩٠.

ومنقحة حتى تقر بها الأعين، ورحم الله الإمام الشعراني الذي قال في نهاية هذه الرسالة:

أسال الله تعالى أن ينفع بها من كتبها أو قرأها أو سمعها، وأن يجزي خيراً من اطلع على هفوة فأصلحها.

ثالثاً: هل كان الشعراني مجتهداً مطلقاً؟

هذه هي التهمة التي ألصقت به رحمه الله مِن قِبَل بعض ضعفة القلوب من فقهاء عصره، يقول الشعراني:

وقد وقع في سنة سبع وخمسين وتسع مئة أن شخصاً ممن لا يخشى الله تبارك وتعالى زوّر عليَّ أنني ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة، فلا تسأل ـ يا أخي ـ عن كثرة ما لاث الناس بعرضي، ولعل شبهتهم في ذلك كثرة أجوبتي عن الأئمة.. وهذا (الاجتهاد المطلق) لم يدَّعِه أحد بعد الأئمة الأربعة إلا ابن جرير الطبري، ولم يسلم له ذلك[1].

وكل من قرأ «الميزان الكبرى» و«كشف الغمة» يدرك معنى قوله رحمه الله تعالى.

ولقد نص الشعراني في غير موطن من كتبه أنه شافعي المذهب، وعندما ترجم للإمام الشافعي، قدمه على أبي حنيفة ومالك بخلاف ما يقتضيه السياق التاريخي أدباً معه، وقال: ومنهم إمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي[2].

وهذا لا يعني بحال من الأحوال أنه كان مقلداً عامياً، ليس له أي مشاركة فقهية، بل إنه رحمه الله كان صاحب رأي واجتهاد في مذهبه، يدرك ذلك من نظر في كتابيه السالفي الذكر.

(١) «المنن الكبرى» ١٨١.

(٢) «الطبقات» ١/ ٥٠.

ذكر من تخرَّج بتربيته من مريديه:

- ألمع الأسماء التي تخرّجت بصحبة الشعراني هو العلامة الحافظ عبد الرؤوف المناوي والمتوفى (١٠٣١هـ)، قد نصَّ هو على ذلك.

- ومنهم العلامة المحدث أحمد بن محمد البقاعي العرعاني والمتوفى (١٠٤٩هـ).

- ومنهم العلامة المحدث المقرئ محمد حجازي الملقب بـ«الواعظ القلقشندي» والمتوفى (١٠٣٥هـ). ذكرهما المحبي.

- ومنهم الأمير حسن بك صنجق الذي هجر الإمارة وترك السلطان في سبيل التتلمذ على يده رحمه الله. ذكره الشعراني.

- وممن رباهم أيضاً: محمد بن الموفق، وكان كاتب ديوان الجيش، ومحمد ابن الأمير، شيخ سوق أمير الجيوش، وأبو الفضل الجزيري القباني، وعلي ابن أمير كبير أزبك، والحاج علي البسطي، وغيرهم.

والإمام الشعراني يذكر أنه لا يميل إلى ذكر أسماء تلاميذه، وأنه لم يؤذن له بذلك[١].

ومنهم ولده عبد الرحمن، وكان قد خلف أباه بعد وفاته، ويقول المناوي: وقام بالزاوية بعده ولده الشيخ عبد الرحمن، لكنه أقبل على جمع المال، ثم توفي في سنة (١٠١١هـ).

مؤلفاته:

ورَّث الشعراني كمّاً كبيراً من تراثه العلمي، فهو كما ذُكر آنفاً قلما ترى علماً من علوم الشريعة إلا وللشعراني مشاركة فيه تأليفاً أو شرحاً أو اختصاراً.

---

(١) انظر «المنن الكبرى» ٤٦٤.

فمن مخلّفه الذي تركه رحمه الله:

- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية.
- أدب القضاة.
- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين.
- الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية.
- البحر المورود في المواثيق والعهود.
- البدر المنير في غريب حديث البشير النذير.
- بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق.
- تنبيه المغترين في آداب الدين.
- تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر.
- الجواهر والدرر الكبرى.
- الجواهر والدرر الوسطى.
- حقوق أخوة الإسلام.
- الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة (وهو كتاب جمع فيه الكثير من العلوم).
- درر الغواص من فتاوى الشيخ علي الخواص.
- ذيل لواقح الأنوار.
- القواعد الكشفية في الصفات الإلٰهية.
- الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر.
- كشف الغمة عن جميع الأمة.

- لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الخلاق (المنن الكبرى).
- لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (طبقات الشعراني).
- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية.
- مختصر تذكرة السويدي (في الطب).
- أسرار أركان الإسلام.
- مختصر تذكرة القرطبي.
- إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء.
- مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين.
- مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية.
- المنح السنية.
- منح المنة في التلبس بالسنة.
- الميزان الكبرى.
- اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر.
- القواعد الكشفية في الصفات الإلهية.
- حاشية على الروض، مختصر الروضة.
- حاشية على شرح البهجة.
- تجريد تفسير الإمام سنيد بن عبد الله الأزدي.
- مختصر سنن البيهقي الكبرى.
- مختصر كتاب المعجزات والخصائص للسيوطي.
- مختصر قواعد الزركشي.
- مختصر الفتوحات المكية واسمه لواقح الأنوار كذلك.

- مختصر المدونة للإمام مالك.
- المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين.
- منهاج الوصول إلى علم الأصول.
- الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون.
- مفحم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد.
- لوائح الخذلان على كل من لم يعمل بالقرآن.
- حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام.
- التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص.
- البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف.
- كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان.
- رسالة في علم النحو واسمها: لباب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب.
- رسالة في إعراب غريب القرآن.
- رسالة الأنوار.
- تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس.
- الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع.
- فرائد القلائد في علم العقائد.
- الاقتباس في علم القياس.

وغيرها أيضاً، وقد كتب المؤلف رحمه الله مئة كراسة في العلوم ثم غسلها[١].

---

(١) «لطائف المنن» ٨٣. وغالب ما ذكر من كتبه ذكره المؤلف في «المنن الكبرى».

ومن نظر في هذه المؤلفات.. رأى فيها اشتمالها على علوم شتى كالفقه وأدلته، والحديث وأصوله، وأصول الفقه، وأصول التصوف، والتربية، والنحو، والطب، والآداب العامة، والعقائد والملل، والتاريخ، والرجال، وغيرها، مما يدل على مكانة ورسوخ علمي قلَّ نظيره في عصره، حتى أبهر من بعده من مسلمين وغيرهم، فرجال الاستشراق عكفوا على كتبه ورأوا فيها ما أبهرهم ولفت أنظارهم مثل «فولرز» و«ماكدونالد» و«نيكلسون» و«كرويمر» و«شاخت» وغيرهم[١].

وفاته:

فاضت روح الإمام عبد الوهاب الشعراني في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة (٩٧٣هـ ـ ١٥٦٥م)، وكانت آخر كلماته رحمه الله: أنا ذاهب إلى ربي الرحيم الكريم، رضي الله عنه، ونفعنا بما ورَّثه لنا وجميع المسلمين آمين.

طرف من أشعاره وأقواله:

لقد كان الشعراني صاحب حسٍّ مرهف، وذوق رفيع، وله سطور أدبية ماتعة، من شعر ونثر، وما نراه أحياناً في كتبه من لين العبارة، وقربها من لغة العامة في عصره؛ فذلك راجع لاجتهاده في هذه المسألة، فالشعراني يقدم حاجة الفهم على فخامة العبارة والتأنق في سطرها، بل ويحض الدعاة إلى التكلم بلغة العامة إن كان يعلم الداعية أن ذلك أجدى نفعاً.

وفي كتابه النفيس «كشف الحجاب والران» أنشد من أشعار القوم الشيء الكثير، فما من مسألة إلا ويستشهد عليها بطرف من شعرهم.

ومن شعره رحمه الله في الرضا بما قسم الله تعالى[٢]: [الكامل]

---

(١) انظر ما كتبه كل من: طه عبد الباقي سرور، وزكي مبارك، وتوفيق الطويل في هذا البحث.

(٢) «لطائف المنن» ١٦٣.

يا ربِّ لا أحصي عليك ثناءَ   في كلِّ أمرٍ سرَّني أو ساءَ
أنتَ الحكيمُ وعينُ فعلكَ حكمةٌ   قد عمَّتِ السرَّاءَ والضرَّاءَ
بكليهما متعرِّف متعطِّف   فالداءُ في الدنيا نراه دواءَ

وله في محبة الله تعالى، خالصةً من العلل والحظوظ[1]: [البسيط]

أحبُّكمْ لا لشيءٍ في الوجودِ ولا   أرجو سواكم ولا أبغي بكم بدلا
يا سادةً غمرونا من فضائلهم   وألبسوا ذاتنا التيجان والحللا
وصيَّرونا ملوكاً تحتَ رقِّهِم   حالَ القناعة وأغنونا بلا وبلا
وأخدمونا ملوكاً تحت طاعتنا   لما خدمْنا وقمنا في الدجى ذُللا[2]
وخلَّقونا بأخلاق الأكابر من   عفوٍ وصفحٍ وحلمٍ في الوجود ملا
وشفَّعونا بيوم الحشر في ملأ   من الأعادي وأغنوهم عن الخللا[3]
وأقطعونا من الجناتِ ما عجزتْ   عنه الملوكُ وأرخَوا دوننا الكللا
والكلُّ من فضلِهم قِدماً لعبدهم   فعمَّ جودُهُمُ الكونينِ واتَّصلا

ويصف الدخلاء في طريق القوم فيقول:

رأيت جماعة يلبسون الصوف، ويأخذون في أيديهم السبحة، وألسنتهم

(١) «لطائف المنن» ٦٨٢، وكان قد كتبها بعد رؤيا رأى فيها إكرام الله سبحانه وتعالى له في الآخرة، وكان قد تحمل أذى شانئيه الذين آذوه وسَعَوا في قتله.

(٢) يورِّي بما أنعم الله عليه من طاعة الولاة والملوك له، وقبول شفاعاته في الناس، كالسلطان الغوري، والسلطان طومان باي، وغيرهما، وهو على حد قول بعضهم:

إن الملوك ليحكمون على الورى   وعلى الملوك لتحكم العلماء

(٣) يلمع أنه رحمه الله ألزم نفسه الشفاعة لأعدائه وحاسديه يوم القيامة.

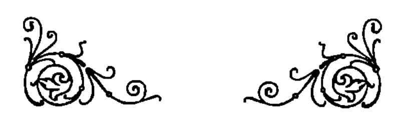
كالعقارب، وأفواههم كأفواه التماسيح، وبطونهم كالسفن، ثم بعد ذلك يدَّعون الطريق، فإيَّاك وإيَّاهم.

ويصف مقام المحبة، ويحذِّر من ادِّعائه قبل التحقق به فيقول:

وإنما مراد القوم بمقام المحبة أن يكون صاحبه ذا أشواق وأتواق واحتراق، ولهف وأسف وشغف، وحزن وأنين ووجد، وغرق واصطلام، وفناء ومحق، وسكر وصحو وبقاء، ونحول وذبول، وأرق وملق، وسهر وسهاد، ووحدة وانفراد، وعزلة وانقياد، وبهتة ودهشة، وحيرة وغيبة، وسكون وحركة، وبلاء وضناء وبكاء، وخشوع وخضوع ودموع، ونيران وأشجان، ونَوح وبَوح، وكتمان وسر، وإعلان وشهود، وخمود وجمود، واطراح وشجن وسراح، وغير ذلك، فكلها صفات المحب أوائل أمره، وأما أوصافه حال توسطه ونهايته: فلا تحصر أوصافه، فإيَّاك ـ يا أخي ـ من دعوى المحبة ثم إياك، إلا إن كنت كما وصفنا.

وبعدُ:

فاللهَ أسأل، وبمفتاح حضرته أتوسل، أن يعود علينا بعوائد برِّه وإحسانه ويتقبَّل، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا شفْع العلم بالعمل، حتى نكون قرَّة عين لسيد ولد آدم، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ، إنه سبحانه خير مسؤول وخير مأمول.





وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله رب العالمين، وأُصلي وأُسلمُ على سيدنا محمدٍ النور المبين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

سبب تأليف الرسالة

هذه رسالة اقتضتها البطالةُ[1]، تشتمل على ثلاثة فصول وخاتمة،

---

(١) بَطَل الأجير: تعطل، وصار بلا عمل، والمراد من البطالة هنا: ترك العمل بالعلم، كما ذكر الإمام الشعراني عن الغزالي وعز الدين بن عبد السلام قولَهما: (قد ضيَّعنا عمرنا في البطالة) وذلك حينما سلك حجة الإسلام على يد الشيخ أبي محمد الباذغاني، وشيخ الإسلام على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي، فذاقا من أحوال أهل الطريق ما جعلهما يقولان ذلك، وإلا . . فهما ممن اهتدت الأمة بعلمهما رضي الله عنهما.

وقد نقل الشعراني كذلك قول حجة الإسلام الغزالي: (قد وجدنا علوم الفقهاء كلَّها حجاباً، فيا ليتنا لم نضيع عمرنا فيها) فقال له بعض العارفين: ولأي شيء تجعلها حجاباً؟ فلو نظرت فيها وفي كل شيء في الوجود. . لوجدته دليلاً على الله تبارك وتعالى، ورافعاً للحجاب عنك. فعمل على ذلك، فعرف وجوه دلالتها على الحق جل وعلا، فرجع عن ذلك القول، وصار يقول: العلم نور يكشف عن العبد الحجب، وإنما يكون حجاباً على من لم يخلص لله عز وجل في تعلُّمه وتعليمه. اهـ

وقد أكد الشعراني هذا المعنى عندما ذكر عن الشيخ غانم المقدسي: أنه كان يسلِّك مريديه كلهم من طريق علم النحو حتى يوصلهم منه إلى حضرة الله تبارك وتعالى.

=

أسألُ الله أن ينفعَ بها جاهلَ العصر وعالمَهُ.

= والبطالة المذكورة قد عاشها الإمام الشعراني حقيقة، ويتبين ذلك من دراسة عصره، ومن مؤلفاته ولاسيما: «لطائف المنن» و«تنبيه المغترين»، فقد أكثر فيهما من وصف الحالة المتردية في زمنه رضي الله تعالى عنه.

(لطائف المنن ٤٣-٨١-٨٤-٨٥) (التصوف الإسلامي والإمام الشعراني ١٣٩).

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي ذِكْرِ شَيءٍ مِنْ فَضْلِ الصُّحْبَةِ فِي اللهِ تَعَالَى

أيهما أفضل؟ العزلة أم الخلطة

اعلمْ ـ وفقني اللهُ وإياك إلى ما يحب ـ: أن الصحبة في الله تعالى من أوثق عرى الإسلام، ومن أكبر أبواب الخير، وقد رغَّب العلماءُ فيها سلفاً وخلفاً، وأما من حذَّر منها، وقال: إن العزلة أقربُ للسلامة من الآفات، وأبعدُ من تحمل الحقوق في المخالطات، وأحزم[1] للاشتغال بالطاعات.. فإنما ذلك في حق المريد ما دام قاصراً، فإذا انتهى سلوكه وكَمُل حاله، بأن صار يشهد الله مع خلقه.. كان الأفضلُ في حقه الخلطةَ، بل الخلطةُ في حق مثل هذا واجبةٌ كما قال بعضهم[2]، لكن العارف في أواخر عمره

(١) في (أ): (أجزم)، وفي (ب): (أجزأ). ومعنى أجزم: أي أقطع لأجل الاشتغال بالطاعات.

(٢) العزلة: حالة مطلوبة في البدايات، وتسكن إليها النفس في النهايات للاشتغال بالطاعات كما بيّن الشعراني رحمه الله، والعزلة للمريد القاصر (وهو الذي ما زال في مراتب السلوك الأولى من التربية والتزكية) ليست عزلة تامة كما يتوهمه بعض الناس، بل هي عزلة تحت إشراف المرشد المسلِّك، فالمريد لا تتحصل له مقامات الصالحين إلا بالجد في طلب العلم ـ الذي هو أحد أركان الطريق ـ ومجاهدة النفس، ولا يكون ذلك إلا بصحبة الصادقين من أهل العلم والعمل، والاقتداء بأحوالهم وأفعالهم، أما الانقطاع التام عن الخلق: فذلك أضرُّ ما يكون على المريد، فعَنْ مَنْ سيأخذ العلم؟ وكيف يتأتى له العمل بالكتاب والسنة ويعيش أحوال أهل الصلاح؟!

ولا ننسى أن الصحبة ركن من أركان الطريق، ومتابعة أهل المعرفة واجبة كما قال الصاوي في «شرحه» لقول صاحب «الجوهرة»:

. . . .   كـذا أبـو الـقـاسـم هـداة الأمـةْ

فـواجـبٌ تـقـلـيـد حـبـرٍ مـنـهـمُ   كـذا حـكـى الـقـوم بـلـفـظٍ يُـفْـهَـمُ

=

يحنُّ إلى الوحدة كالبداية، فلا يصير له وقت يسع الناس، كما وقع(١) لرسول الله ﷺ حين أنزلت عليه سورة النصر(٢)، فعلم أنه لا يقال: العزلةُ

= وكذلك الأخذ بطريق الجنيد، ليس فيه تقليد لا في الفروع ولا في الأصول، وإنما هو اتباع كيفية العمل على طبق السنة أصلاً وفرعاً. «الصاوي» ٣٣٨.

ومن ظن أن العزلة التي يذكرها أئمة هذا الشأن هجر الخلق على الكلية.. فقد غفل عن قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

غير أن العزلة المطلقة مطلوبة بين الفينة والفينة، واسمع إلى كلام د. محمد سعيد رمضان البوطي وهو يعلق على الخلوة والعزلة في غار حراء:

إن لهذه الخلوة التي حُبِّبتْ إلى قلب رسول الله ﷺ قبيل البعثة دلالة عظيمة جداً، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة، والداعين إلى الله بصورة خاصة؛ فهي توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل، قائماً بألوان العبادات، حتى يجمع إلى ذلك ساعاتٍ من العزلة والخلوة، يحاسب فيها نفسه ويراقب الله تعالى، ويفكر في مظاهر الكون، ودلائل ذلك على عظمة الله، هذا في حق أي مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح، فكيف بمن يريد أن يضع نفسه موضع الداعي إلى الله، والمرشد إلى الطريق الحق؟! «فقه السيرة» ٩٢.

وأما عن حال المريد في البدايات: فإن شهرته وانتشار صيته الذي يسعى إليه بجهله، وينميها فيه الجهلة من أدعياء العلم أضرُّ شيء عليه. قال العلامة ابن عباد الرندي (٧٩٢هـ): لا شيء أضرّ على المريد من الشهرة وانتشار الصيت؛ لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها. «غيث المواهب» ٧٦.

فإن اشتد عوده، وقويت حجته.. لزمه تبليغ الأمانة وحمل شرف الرسالة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

إذاً؛ فالصحبة حسنة في كل الأحوال، ولكن بما يوافق الوصف، فالقاصر تلزمه صحبة الصالحين وأهل العلم والأدب، والكامل يخالط أجناس البشر؛ لينشر دين الله وأخلاق نبيه ﷺ، وأما العارف في أواخر عمره: فيميل إلى العزلة مفتقراً بكلِّه لمولاه عز وجل كما سيأتي قريباً، وسيعيد المؤلف الحديث عنه في (الآداب).

(١) في (أ) و(ب): (قال) بدل (وقع).

(٢) وذلك عندما نُعيت للنبي ﷺ نفسه حين نزلت هذه السورة، فقد روى البخاري في «صحيحه» (٤٩٧٠) عن ابن عباس قال: «كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ =

أفضلُ مطلقاً ولا الخلطة أفضل مطلقاً[١].

ثم لا يخفى أن صحبة الأدنى للأعلى ليست بصحبة في الحقيقة، وإنما هي

= بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم (يشير إلى قرابته من رسول الله ﷺ، أو إلى معرفته وفطنته، ذكره ابن حجر في «الفتح») فدعا ذات يوم، فأدخله معهم، فما رُئيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح ـ وذلك علامة أجلك ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول».

فكان التسبيح والاستغفار المأمور بهما من علامة الاجتهاد في أمر الآخرة، كما روي ذلك من طريق عكرمة عن ابن عباس: «فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة» رواه الطبراني كما في «فتح الباري».

(١) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤]، وقد نبَّه أحدهم إلى المعنى الجامع بين العزلة والصحبة فقال:

وحدةُ الإنسان خيرٌ ... من جليس السوءِ عندَهْ
وجليسُ الخيرِ خيرٌ ... من قعودِ المرءِ وحدَهْ

وقد ذكر الفقيه أبو الليث السمرقندي فائدة في ذلك فقال:

قد اختار بعض الناس ترك المخالطة وأحب العزلة، وقال: السلامة في العزلة، والذي نقول في ذلك: إن الرجل إذا كان بحال لو اعتزل لكان أسلم لدينه.. فعل، ولو كان بحال لو خلا بنفسه اشتغل بالوسواس.. فالمخالطة له أفضل بعد أن يعرف حقوقهم وتعظيمهم. «بستان العارفين» ٢٢-٢٣.

تعليمٌ وخدمة؛ إذ صاحب الإنسان: هو من يشرب من بحره ويحيط بمقامه.

فإطلاق الصحبة بين المريد والشيخ، والصحابي والرسول إطلاقٌ مجازي لا حقيقي[1].

إذا علمت ذلك.. فنورد عليك شيئاً من **الأخبار الواردة في فضل المتحابين في الله**؛ لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل[2].

أنواع الصحبة (١) كما ذكر ذلك الإمام القشيري في «رسالته»، قال:

(والصحبة ثلاثة أقسام: صحبة مَنْ فوقك: وهي في الحقيقية خدمة، وصحبة مَنْ دونك: وهي تقتضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة، وصحبة الأكْفَاء والنظراء: وهي مبنية على الإيثار والفتوّة).

ثم ذكر ما يؤيد ذلك فقال: (سمعت منصور بن خلف المغربي وسأله بعض أصحابنا: كم سنة صحبت أبا عثمان المغربي؟ فنظر إليه شزراً وقال: إني لم أصحبه، بل خدمته مدة).

فقول طالب العلم اليوم: إنه خادم للعالم الفلاني هو إقرار منه على علوّ مرتبة شيخه وتلميح بصحبته، وشرط ذلك الانتفاع من الأكابر، لا محض الجلوس بين أيديهم، قال العلامة ابن عطاء الله الإسكندري:

ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبتهم، فلا تجعل صحبة المشايخ علّة في أمنك... كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلاناً، ورأيت سيدي فلاناً، ويدّعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً. «تاج العروس» ٥٤.

(٢) فمن القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال سبحانه على لسان سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام في حق الخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

وكمٌّ كبير من آي الذكر الحكيم.

فروى الشيخان في «صحيحيهما»: «سبعةٌ يظلهمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمساجد، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ؛ اجتمعا عليهِ وتفرَّقا عليهِ، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ»[١].

وروى مسلمٌ: «والذي نفسي بيدِهِ؛ لنْ تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا، ولنْ تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أوَلا أدلُّكُمْ على شيءٍ إذا فعلتُمُوه تحاببْتُم؟ أفشوا السلامَ بينَكُمْ»[٢].

---

(١) البخاري (١٤٢٣)، مسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الغاية من الصحبة

وموطن الشاهد قوله ﷺ: «ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه» فليست كل صحبة محمودة، وإنما المحمود ما كان لله وفي الله فحسب، وسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام سأل الله صاحباً في طريق دعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾، ثم ذكر علة ذلك: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

فالصحبة التي لا توصل إلى الغايات النبيلة ليس لها معنى بين أهل الإيمان؛ لأنها لا تحقق الثمرة المرجوة، وهذه الصحبة أضحت درة نادرة الوجود، فلم تعد الصحبة اليوم إلا شكلاً من وسائل الترفيه والمتعة، وضرباً من أساليب جمع المال، أو عابرةً معلولة تنتهي عندما يقضي الأطراف الوطر منها، وذلك عائد إلى ترك تصحيح النية في الصحبة والأخوة، ألا وهي: الحب في الله ولله، والتواصي بالحق والصبر على الدوام.

(٢) مسلم (٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة... ولا تؤمنوا حتى تحابوا» قال الإمام النووي رحمه الله: هكذا في جميع الأصول والروايات: «ولا تؤمنوا» بحذف النون من آخره، وهي لغة معروفة صحيحة. اهـ

فلفظ (لن): لم يرد في رواية مسلم، وكذا عند «أحمد» و«الترمذي»، ولكنه ورد في «المستدرك» ٤/ ١٨٥ عن أبي موسى الأشعري: «لن تؤمنوا حتى تحابوا» وكذا رواه الطبراني بلفظ (لن) في بداية الحديث. قال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٠: وفيه عبد الله بن صالح، وقد وُثِّق وضعفه جماعة.

=

وروى أيضاً: «زارَ رجلٌ أخاً لهُ في اللهِ، فأرسلَ اللهُ له مَلَكاً على مدرجتِهِ، قال: أينَ تريدُ؟ قال: أريد أخاً لي في هذهِ القريةِ، قالَ: فهلْ لكَ عندَهُ من نعمةٍ تربُّها؟ قال: لا، غيرَ أنِّي أحببتُهُ في الله، قال أبشرْ؛ فإني رسولُ الله إليكَ: أنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أحببتَهُ»[1].

وروى ابن عساكر وغيره: «سبعةٌ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رَجلٌ ذكرَ اللهَ فَفَاضَتْ عيناه، ورجلٌ يحبُّ عبداً لا يحبُّهُ إلا للهِ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمساجدِ؛ من شدَّةِ حبِّهِ إيَّاها، ورجلٌ يعطي الصدقةَ بيمينِهِ فيكادُ أن يخفيها عن شمالِهِ، وإمامٌ مقسطٌ في رعيتِهِ، ورجلٌ عَرَضَتْ عليه امرأةٌ نفسَها فتركَها لجلالِ اللهِ، ورجلٌ كان في سريَّةٍ معَ قومٍ فلقوا العدوَّ فانكشفوا فحمى آثارهم حتى نَجَوا ونجا أو استشهد»[2].

وروى البيهقي في «الأسماء»: «سبعةٌ يظلُّهُمُ الله تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمساجدِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلان تحابَّا في اللهِ، ورجلٌ غضَّ عينَيهِ عن محارم الله، وعينٌ حرسَتْ في سبيلِ اللهِ، وعينٌ بكتْ من خشيةِ اللهِ»[3].

= وفي الحديث الحضُّ على الخلطة لله عز وجل، فالسلام الذي ـ هو شعار المسلمين ـ أول أسباب التآلف، وفي الحديث لطيفة ذكرها الإمام النووي في شرحه فقال: وفيه لطيفة أخرى وهي تتضمن رفع التقاطع والتهاجر وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه.

(١) مسلم (٢٥٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٠)، والمدرجة: الطريق، وتربُّها: تنميِّها وتقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ٦٦/ ٢٣٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... فحمى أدبارهم حتى نجا ونجوا».

(٣) «الأسماء والصفات» باب ما روي في الإظلال بظله يوم لا ظل إلا ظله، بلفظه، قال: ومعناه عند أهل النظر: إدخاله إياهم في رحمته ورعايته؛ كما يقال: أسبل =

وروى أيضاً في «شعب الإيمان»: «رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ التودُّدُ إلى الناسِ، وأهلُ التودُّدِ في الدنيا لهم درجةٌ في الجنَّةِ، ومَنْ كانتْ له درجةٌ في الجنَّة.. فهوَ في الجنةِ»(١).

وروى أيضاً: «رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ التحبُّبُ إلى الناسِ، واصطناعُ الخيرِ إلى كلِّ برٍّ وفاجرٍ»(٢).

وروى الدارقطني: «المؤمنُ يألفُ ويُؤلفُ، ولا خير فيمن لا يألفُ ولا يؤلفُ، وخيرُ الناسِ أنفعهمُ للناسِ»(٣).

وروى أبو داود: «من أحبَّ للهِ وأبغضَ للهِ، وأعطى للهِ ومنعَ لله.. فقد استكملَ الإيمان»(٤).

وروي أيضاً: «أفضل الأعمال الحب في الله، والبغض في الله»(٥).

وروي أيضاً: «أفضلُ الإيمانِ أن تحبَّ للهِ، وتبغضَ للهِ، وتستعملَ لسانَكَ في ذكرِ اللهِ، وأن تحبَّ للناسِ ما تحبُّ لنفسِكَ، وتكرَهَ لهم ما تكرَهُ لنفسِكَ،

= الأمير ظله على فلان، بمعنى الرعاية، وقيل: ظل العرش، وإضافته إلى الله عز وجل وقعت على معنى الملك. اهـ

(١) «شعب الإيمان» (٨٠٦١ ـ ٨٤٤٧ ـ ٩٠٥٤ ـ ٩٠٥٥) عن أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما، والمحفوظ مرسل عن سعيد بن المسيب بألفاظ متقاربة.

والتودد إلى الناس: التسبب في محبتهم لك بالبِشْر والطلاقة والهدية والإحسان ونحو ذلك، وقيل: الإتيان بالأفعال التي تودك الناس ويحبونك لأجلها، كما يشير إليه خبر: «ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» انظر «فيض القدير» (٣/ ٥٧٥).

(٢) «شعب الإيمان» (٨٠٦٢) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، وعن ابن المسيب مرسلاً.

(٣) رواه الدارقطني في «الأفراد».

والحديث بالجملة يرقى إلى درجة الصحة وله شواهد في الصحيح، وقد جاء بألفاظ متفاوتة. انظر «المقاصد الحسنة» (٥١٥) و«زوائد تاريخ بغداد» (٣٠٦).

(٤) سنن أبي داود (٤٦٨١)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٥) سنن أبي داود (٤٥٩٩)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

وأن تقولَ خيراً أو لتصمُتْ»[١].

وروى الإمام أحمد: أن اللهَ يقول يومَ القيامة: «أينَ المتحابونَ لجلالي؟ اليومَ أظلهُمْ في ظلي»[٢].

وروى أيضاً: «المؤمن الذي يخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهُم.. أفضلُ من المؤمن الذي لا يخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم»[٣].

وروى أيضاً: «إنَّ أوثقَ عُرى الإسلامِ أنْ تحبَّ في اللهِ وتبغضَ في الله»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٤٧، من طريق رشدين وابن لهيعة عن سهل بن معاذ عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، والطبراني في «الكبير» ٢٠/ ١٩١ ورشدين وابن لهيعة ضعيفان كما ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٨٩، وسهل بن معاذ بن أنس ضعيف كما في «الجرح والتعديل» ٤/ ٢٠٣.

(٢) «مسند أحمد» (٢/ ٢٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث في «صحيح مسلم» (٢٥٦٦).

(٣) «مسند أحمد» (٢/ ٤٣)، عن ابن عمر رضي الله عنه، وقد رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨).

(٤) «مسند أحمد» (٤/ ٢٨٦)، عن البراء بن عازب قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: أي عرى الإسلام أوسط؟ قالوا: الصلاة. قال: حسنة، وما هي بها، قالوا: الزكاة. قال: حسنة، وما هي بها، قالوا: الصيام. قال: حسن، وما هو به، قالوا: الحج. قال: حسن، وما هو به، قالوا: الجهاد. قال: حسن، وما هو به، قال: إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله».

وفي سنده ليث بن أبي سليم، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٨٩: ضعفه الأكثر، وقال العراقي: مختلف فيه. وقد روي من طرق أخرى لا تخلو من الضعف.

وأوثق العرى: أكثرها قوة وثباتاً، والوثيق: الشيء المحكم.

وروى أيضاً بسند صحيح: «إِن المتحابينَ في اللهِ لَتُرى غرفُهُم في الجنَّةِ كالكوكبِ الطالعِ الشرقيِّ أو الغربيِّ، فيقالُ: مَنْ هؤلاءِ؟ فيقالُ: هؤلاءِ المتحابونَ في اللهِ»(١).

وروى أيضاً: «أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في الله»(٢).

وروى أيضاً: «مَنْ سرَّه أن يجدَ حلاوةَ الإيمانِ.. فليحبَّ المرءَ لا يحبّهُ إلا للهِ»(٣).

وروى الطبراني: «رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ التحبُّبُ إلى الناسِ»(٤).

وروى أيضاً: «إِنَّ المتحابينَ في اللهِ في ظلِّ العرشِ»(٥).

وروى أيضاً: «ثلاثةٌ في ظلِّ العرشِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ:

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ٨٧) ـ (٥/ ٣٤٠) عن أبي سعيد الخدري، وهو كما ذكر الشيخ، صحيح. قال في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح، وهو في «البخاري» (٦٠٧١)، و«مسلم» (٢٨٣١).

وأفاض ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٣٢٨ بالشرح والتعليق على صورة التشبيه.

(٢) «مسند أحمد» (٥/ ١٤٦).

(٣) «مسند أحمد» (٢/ ٢٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه (طعم) بدل (حلاوة) وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٩٠: رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم ١/ ٣ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) الطبراني في «الأوسط» (٦٠٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي «الصغير»: (٧٠٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال الهيثمي: وفيه جماعة لم أعرفهم. انظر الكلام على هذا الحديث في «المقاصد الحسنة» للسخاوي (٥٠٨).

(٥) الطبراني في «الكبير» ٢٠/ ١٤٦ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، والحاكم ٤/ ١٦٩ وقال: على شرطهما، وقال العراقي: وهو عند الترمذي عن معاذ بلفظ آخر (سيذكر قريباً) راجع «فيض القدير» (٢/ ٣٨٧).

رجلٌ حيثُ توجَّهَ علم أنَّ اللهَ معهُ، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ إلى نفسِها فتركَها من خشيةِ اللهِ، ورجلٌ أحبَّ لجلالِ اللهِ»[١].

وروى أيضاً: «المتحابونَ في اللهِ على كراسيَّ من ياقوتٍ حولَ العرشِ»[٢].

وروى أيضاً: قال الله تعالى: «وَجَبت محبَّتي للمتحابينَ فيَّ، والمتجالسينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ، والمتزاورينَ فيَّ»[٣].

وروي أيضاً: «لو أن عبدينِ تحابّا في اللهِ، واحدٌ في المشرقِ، وآخرُ في المغربِ.. لجمعَ اللهُ بينهما يومَ القيامةِ، يقولُ: هذا الذي كنتَ تحبُّهُ فيَّ»[٤].

وروى أيضاً: «ما تحابَّ رجلانِ في اللهِ.. إلا وضعَ اللهُ لهما كرسيّاً فأُجْلِسَا عليه حتى يفرغَ اللهُ من الحسابِ»[٥].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٧٩٣٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال الهيثمي كما في «فيض القدير» ٣/٣١٨: وفيه بشر بن نمير وهو متروك.

(٢) الطبراني في «الكبير» (٣٩٧٣) عن أبي أيوب رضي الله عنه، قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٢٧٧: وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي، وقد وثق على ضعف كثير، وأورده الذهبي في «الميزان» في ترجمته وقال: قال البخاري: منكر الحديث، وانظر «فيض القدير» ٦/ ٢٦٠.

(٣) الطبراني في «الكبير» ٢٠/ ١٥٠ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو عند الترمذي (٢٣٩٠)، والحاكم ٤/ ١٧٠ وقال: على شرطهما ولم يخرجاه. وسيأتي في نهاية الفصل الأول بطوله.

(٤) البيهقي في «الشعب» (٩٠٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سنده حكيم بن نافع قال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال ابن معين: ليس به بأس، وقال مرة: ثقة. «ميزان الاعتدال» ٢/ ٣٥٤، وانظر «فيض القدير» ٥/ ٣٠٩.

(٥) الطبراني في «الكبير» ٢٠/ ٣٦، عن أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما، قال الهيثمي: =

وروى أيضاً: «مَنْ أحبَّ قوماً.. حُشِرَ في زمرتِهِم»(١).

وروى أيضاً: «المتحابونَ في الله في ظلِّ اللهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ، على منابرَ من نورٍ، يفزعُ الناسُ ولا يفزعونَ»(٢).

وروى أيضاً: «إنَّ للهِ عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، يغبطهمُ النبيونَ والشهداءُ على منازِلِهم وقربِهِم من اللهِ، قيلَ: مَنْ هُم يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ناسٌ من بلدانٍ شتَّى لم تصلْ بينهم أرحامٌ متقاربةٌ، تحابُّوا في اللهِ، وتصافحُوا، يضعُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ منابرَ من نورٍ قُدّامَ الرحمٰنِ فيجلسهم عليها، يفزعُ الناسُ ولا يفزعونَ»(٣).

وروى أيضاً: «ليبعثنَّ اللهُ أقواماً يومَ القيامةِ، في وجوهِهم النورُ على منابرِ اللؤلؤِ، يغبطُهم الناسُ، ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، قيلَ: مَنْ هم؟ قال: المتحابونَ في اللهِ، من قبائلَ شتَّى وبلادٍ شتَّى، يجتمعونَ على ذكرِ اللهِ يذكرونَهُ»(٤).

= وفيه داود الأعمى، وهو كذاب. قال الحافظ المناوي: كان ينبغي للمصنف (السيوطي) حذفه من الكتاب. «فيض القدير» ٥/ ٤٣٥.

(١) الطبراني في «الكبير» (٢٥١٩) عن أبي قِرصافة، قال الهيثمي: وفيه من لم أعرفهم. وقال السخاوي: فيه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف. «فيض القدير» ٦/ ٣٢، وله شواهد من الصحيح كحديث: «المرء مع من أحب» الآتي قريباً.

(٢) الطبراني في «الكبير» ٢٠/ ٨١، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، و«الأوسط» (١٣٢٨) عن أبي الدرداء، وفي إسناده نظر (قاله المنذري في «الترغيب والترهيب» ١/ ١٣٤) وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٧٧: وفيه من لم أعرفهم. وأخرجه أحمد في «مسنده» ٥/ ٣٤٣ من حديث طويل.

(٣) الطبراني في «الكبير» ٣/ ٢٩٠ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٧٦: ورجاله وثقوا.

(٤) الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٧٧ وقال: إسناده حسن، وفيه: فجثا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله حلِّهم لنا نعرفْهم، قال: «هم المتحابون...».

وروى أيضاً: «إِنَّ في الجنَّةِ غُرفاً يُرى ظواهرُهَا من بواطنِها، وبواطنُها من ظواهرِها، أعدَّها اللهُ للمتحابينَ فيه، والمتزاورينَ فيه، والمتباذلينَ فيه»[١].

وروى البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة: «إن في الجنَّةِ لَعُمُداً من ياقوتٍ عليها غرفٌ من زبرجدٍ لها أبوابٌ مفتَّحةٌ، تضيءُ كما يضيءُ الكوكبُ الدريُّ، قلنا: يا رسولَ اللهِ من يسكنُها؟ قال: المتحابونَ في الله، والمتباذلونَ في الله، والمتلاقونَ في الله»[٢].

وروى الترمذي ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ: «قال الله تعالى: المتحابونَ في جلالي لهم منابرُ من نورٍ يغبطهمُ النبيونَ والشهداءُ»[٣].

وروى أيضاً: «المرءُ مع من أحبَّ، وله ما اكتسبَ»[٤].

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٢٩٠٣) عن أبي بريدة رضي الله عنه، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٧٨): وفيه إسماعيل بن سيف وهو ضعيف.

(٢) البزار (كشف الأستار ٣٥٩٢)، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في «الزهد» (١٤٨١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٣٢)، والعقيلي في «الضعفاء» ١/ ٣٠٨، وابن عدي في «الكامل» ٦/ ١٩٦، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٢)، كلهم من طريق محمد بن أبي حميد، وقد أورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٥١٩٦) وقال: ضعيف. وقال في «مختصر زوائد مسند البزار» ٢/ ٥١٠: ضعيف جداً.

(٣) الترمذي (٢٣٩٠) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، بلفظ: «يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون».

(٤) الترمذي (٢٣٨٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهذا الحديث يؤيد الحديث السالف الذكر: «من أحب قوماً.. حشر في زمرتهم».

وفي هذا الحديث لطيفة يحسن ذكرها، وهي: أن الرجل يكون مع الأنبياء والصديقين في الجنة بحبه لهم، وتقديم حبهم على أهوائه وشهواته ومحبوباته، ولا يقولن قائل: إن الحب دليله العمل، فلا حب بغير عمل، فإن هذه المقالة ـ وإن صحت في معناها ـ لا ترد في هذا الباب، فأنَّىٰ لأحدنا أن يعمل عمل الأنبياء =

وروى أيضاً: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ، وأن يكرَهَ أن يعودَ في الكفرِ بعدَ أَنْ أنقذَهُ اللهُ منْهُ كما يكرَهُ أن يلقى في النارِ»(١).

وروى أيضاً: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً»(٢).

وروى ابن النَّجار: «استكثروا من الإخوانِ؛ فإنَّ لكلِ مؤمنٍ شفاعةً يومَ القيامةِ»(٣).

وروى الحكيم: «نظرُ الرجلِ لأخيهِ عن شوقٍ خيرٌ من اعتكافِ سنةٍ في مسجدي هذا»(٤).

= والصديقين؟! وهذا هو سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه يفرح بهذا الحديث فرحاً عظيماً، يقول: فما فرحنا بعد الإسلام فرحنا بقوله: «اقعدْ فإنك مع من أحببت»، قال: فإني أرجو أن أكون مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر لحبي إياهم، وإن كنت لأقصر عن أعمالهم. وفي رواية: وإن لم أعمل بأعمالهم.

وفي هذا الحديث تسلية وأُنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل، وهذا الذي تمسك به سيدنا أنس رضي الله عنه يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ورجونا رحمة الرحمن وإن لم نكن لها مستأهلين، وإن كلباً أحب قوماً فذكره الله معهم، فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي ﷺ. انظر شروح الحديث عند مسلم والترمذي وغيره، وكلام الإمام القرطبي السالف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾.

(١) الترمذي (٢٦٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو في «الصحيحين» و«يعود»: يصير.

(٢) الترمذي (١٩٢٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو متفق عليه كذلك. وعندهما زيادة: «وشبَّك بين أصابعه ﷺ».

(٣) رواه ابن النجار في «تاريخه» عن أنس كما في «فيض القدير» (١/ ٥٠٠)، وقال: ورمز المصنف لضعفه. وقال في شرحه: أما إخوان هذا الزمان: فينبغي الإقلال منهم.

(٤) هو في «نوادره» عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، في الأصل (١٣٧) (في فضل نظرة المشتاق)، وفي «كشف الخفاء»: رواه ابن لال عن ابن عمر رضي الله عنه.

وروى ابنُ أبي الدنيا: «قال الله تعالى: حقتْ محبَّتي للمتحابينَ فيَّ، اليومَ أظلُّهُم في ظلِّ العرشِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّي»[١].

وروى أيضاً: «مَا أحدثَ رجلٌ إخاءً في اللهِ إلا أحدثَ اللهُ لهُ درجةً في الجنَّةِ»[٢].

وروى أيضاً: «أصبْ بطعامِكَ مَنْ تحبُّ في اللهِ»[٣].

وروى الحاكم وغيره: قال الله تعالى: «المتحابونَ فيَّ على منابرَ من نورٍ، يغبطُهُم بمكانهم النبيُّونَ والصدِّيقونَ والشهداءُ»[٤].

وروى البيهقي: «من أحبَّ أن يجدَ طعمَ الإيمانِ.. فليحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ»[٥].

وروى أيضاً: أن الله تعالى يقول: «إنِّي لأهمُّ بأهلِ الأرضِ عذاباً فإذا نظرتُ إلى عُمَّارِ بيوتي والمتحابين فيَّ، والمستغفرينَ بالأسحارِ.. صرفتُ عذابي عنهم»[٦].

---

(١) ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٩).

(٢) ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٢٦) عن أنس رضي الله عنه، قال المناوي: قال العراقي: إسناده ضعيف. ثم ذكر له عاضداً عند ابن أبي الدنيا، «فيض القدير» (٥/ ٤١٢).

(٣) ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (١٩٧) عن الضحاك مرسلاً، وغيره بلفظ متقارب. انظر «فيض القدير» ١/ ٥٢٨.

(٤) «المستدرك» ٤/ ٤٢٠، وقال: وهو صحيح على شرطهما. والترمذي (٢٣٩٠)، وقد مرَّ.

(٥) «شعب الإيمان» (٨٩٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) «شعب الإيمان» (٩٠٥١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال الحافظ المناوي: وفيه صالح المرِّي، أورده الذهبي في «الضعفاء والمتروكين» وقال: قال النسائي وغيره: متروك. «فيض القدير» ٢/ ٣١٤.

والأخبار في فضل المتحابين في الله كثيرة، ونقتصر منها على هذا القدر.

وأما الآثار عن السلف الصالح، والعلماء العاملين: فكثيرة أيضاً، ونذكر لك ـ يا أخي ـ شيئاً منها:

فعن الحسن البصري[١] رحمه الله تعالى قال: كل من اتَّبع طريقة طاعة الحق تعالى.. لزمتك مودَّتُه، ومن أحبَّ رجلاً صالحاً.. فكأنما أحبَّ اللهَ عز وجل.

وقال الإمام الشافعي[٢] رحمه الله: لولا صحبة الأخيارِ، ومناجاةُ الحق تعالى بالأسحارِ.. ما أحببتُ البقاء في هذه الدار.

وقال أيضاً: لقاء الإخوان ليس يعدلُه عندي شيء.

---

(١) الحسن ابن أبي الحسن، يكنى بأبي سعيد، من موالي الأنصار، كان تابعياً جليلاً زاهداً عابداً، اشتهر بالخوف والحزن، وكان كلامه أشبه ما يكون بكلام النبوة، توفي رضي الله عنه سنة (١١٠هـ)، ودفن بالبصرة.

وقد ذكر الشعراني مقالته هذه في «طبقاته» ١/ ٣٠، وأخرجها البيهقي عنه في «الشعب» (٨٩٨٧).

«الحلية» ٢/ ١٥٣، «طبقات الشعراني» ١/ ٣٠، «جامع كرامات الأولياء» ٢/ ٢١، «سير أعلام النبلاء» ٤/ ٥٦٣.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي نسبه بسيدنا رسول الله ﷺ في عبد مناف، أستاذ المتكلمين، ولد بغزة سنة (١٥٠هـ) وتوفي بمصر سنة (٢٠٤هـ)، أخذ عن الإمام مالك، وناظر محمد بن الحسن وأخذ عنه، وأخذ عنه ناصر السنة أحمد بن حنبل، كان نادرة عصره، قال فيه أحمد: كان الشافعي للدنيا كالشمس، وكالعافية للناس.

«الحلية» ٩/ ٧١، «طبقات الشعراني» ١/ ٥٠، وقد ترجمه الشعراني في «طبقاته» هذه وقدَّمه على باقي الأئمة؛ لأنه إمامه كما ذكر.

وقال مطرِّف بن الشخِّير[1]: أوثق أعمالي عندي، حُبِّي للرجل الصالح.

وقال أبو نصر بشر الحافي[2] رحمه الله: عليك بصحبة الأخيار، إن أردت الراحةَ في تلك الدار، وأن تحسنَ ظنَّك بالأشرار، وتنفكَّ من رقِّ الأغيار.

وقال سيدي أحمد ابن الرفاعي[3] رحمه الله: مصاحبة أهل التقوى،

---

(١) مطرف بن عبد الله الشخير الحَرَشي، من أكابر التابعين، روى عن الصحابة الحديث، كان يقول: ذهب العلم، وبقيت عبارات في أوعية السوء. وله في هذا المقام: إذا أمرت غلامي بحاجة فقدَّم حاجة صديقي عليها.. ازددت في ذلك الغلام حبّاً. توفي سنة (٢٠٧هـ).

«حلية الأولياء» ٢/ ٢٢٧، «الطبقات للشعراني» ١/ ٣٤.

(٢) أصله من (مرو) سكن بغداد، ومات فيها سنة (٢٢٧هـ)، ذكر القشيري سبب توبته بأنه رأى ورقة كتب عليها اسم الله عز وجل، قد وطئتها الأقدام، فأخذها وطيبها، وجعلها في شق حائط، فرأى كأن قائلاً يقول له: يا بشر! طيبت اسمي.. لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة. «الرسالة القشيرية» ٥٤.

كان عالماً ورعاً غاية الورع، حتى ذكروا أن أخته سألت أحمد بن حنبل فقالت: إنا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الطاهرية ـ حرس الحريم الطاهري ببغداد ـ ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال: من أنتِ عافاكِ الله؟ قالت: أخت بشر الحافي، فبكى وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

«طبقات الصوفية للسلمي» ٣٩، «طبقات الشعراني» ١/ ٧٢، «الحلية» ٨/ ٣٧٨.

(٣) قال الحافظ الذهبي: الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين، أبو العباس أحمد ابن أبي الحسن الرفاعي المغربي ثم البطائحي، مات أبوه وأحمد حمْلٌ، فلما ولد.. رباه وأدبه خاله الشيخ منصور. ولد سنة (٥٠٠هـ) وتوفي سنة (٥٧٨هـ) والرفاعي: نسبة إلى رفاعة قبيلة من العرب.

قيل: إنه أقسم على أصحابه إن كان فيه عيب ينبهونه عليه.. فقال الشيخ عمر الفاروثي: يا سيدي! أنا أعلم فيك عيباً، قال: ما هو؟ قال: يا سيدي! عيبك أننا =

نعمةٌ عظيمةٌ من نعم الله على العبد.

وقال أبو السعود بن أبي العشائر[١] رحمه الله: من أراد أن يعطى الدرجة القصوى يوم القيامة.. فليصاحبْ في الله، ومن أحبَّ أن تصرفَ عنه مرارةُ الموقف.. فليطعم أخاً في الله شيئاً من الحلوى[٢].

وفي الحديث: «من وافق من أخيه شهوة.. غفر له»[٣].

= أصحابك. فبكى الشيخ والفقراء وقال: أي عمرُ! إن سلم المركب.. حمل من فيه. «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٧٧.

قال السبكي: مناقبه أكثر من أن تحصر، وقد أفرد لها بعض الصلحاء كتاباً خاصّاً. «طبقاته» ٦/ ٢٣-٢٧.

كان صاحب نهضة علمية ومجدداً مبرزاً، مع تواضع شديد وحياء نبوي، ذاع صيته وانتشر حتى طبّق الآفاق. وانظر كذلك «طبقات الشعراني» ١/ ١٤٠ وهو فيه كما يسميه الشيخ: أحمد ابن الرفاعي.

ومعنى قوله: (إن سلم المركب.. حمل من فيه) محمول على معنى الحديث الذي سبق ذكره وهو: «المرء مع من أحب» وانظره هناك.

(١) من أجلاء مشايخ مصر، عراقي الأصل، كان السلطان ينزل لزيارته، وتخرَّجَ بصحبته، وانتفع خلق كثير، مات رضي الله عنه سنة (٦٤٤هـ)، ودفن بسفح جبل المقطم، وعباراته تدل على مجاهدة النفوس. قال فيه الشعراني: ما رأيت من لسان الأولياء أوسع أخلاقاً منه ومن سيدي أحمد ابن الرفاعي.

«الطبقات للشعراني» ١/ ١٦٢ «طبقات الأولياء» لابن الملقن.

(٢) يروى: «من لقم أخاه لقمة حلوة.. صرف الله عنه مرارة الموقف».

حكم عليه ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف» بالوضع. وذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» في القسم الأول من بابه (أي ما اتفق على وضعه) ٢/ ٢٥٦ وقام بدراسة طرقه فيه، فليراجع. ولكن أخرج البيهقي في «الشعب» (٩٦٢٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٤٨) مرفوعاً: «لأن أطعم أخاً في الله مسلماً لقمة.. أحب إليَّ من أن أتصدق بدرهم».

(٣) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (٢٨٩٠)، وهو في «مختصر زوائده» للحافظ =

وقال شيخ الوفائية[١] رحمه الله: لا تبع ذرة من الحب لله، أو في الله بقناطير من الأعمال، قال رسول الله ﷺ: «المرءُ معَ مَنْ أحبَّ»[٢].

وقال سيدي علي وفا[٣]: إذا أحببت أخاً في الله.. فاحفظْه، تزددْ به

= ابن حجر ١/٦٠٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/١٧: رواه الطبراني عن أبي الدرداء والبزار، وفيه: زياد بن نمير النميري، وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه غيره، وفيه من لم أعرفه.

وأورده الذهبي في «الميزان» وقال: يروي عن نصر بن نجيح، إسناده مظلم، ليسوا بعمدة.

وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٣٨٢) بلفظ: «من أطعم أخاه المسلم شهوته.. حرمه الله على النار» وهو حديث منكر الإسناد.

وإطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المسلمين من أعظم القربات إلى الله عز وجل؛ فقد أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وكونوا إخواناً كما أمركم الله عز وجل».

(١) هو العارف بالله محمد وفا، والد الشيخ علي وفا الذي سيأتي، كان من أكابر العارفين، وسمي بالوفا: لكرامة وقعت له عند جفاف النيل وقت الوفا فقال له: اطلع بإذن الله، فأوفى فسموه: وفا. وهو مغربي الأصل، وكان قد استوطن بالإسكندرية، من مؤلفاته: كتاب «العروس» وكتاب «الشعائر»، وله ديوان عظيم.

«طبقات الشعراني» ٢/٢١، «جامع كرامات الأولياء» ١/٢٣٧.

(٢) متفق عليه عن أنس رضي الله عنه، وقد مرّ.

(٣) هو ابن الشيخ محمد وفا، المالكي الصوفي الشهير، قال الشعراني: ولد سنة (٧٦١هـ) كما رأيته بخطه، وتوفي سنة (٨٠١هـ) كما قيل، وترجمته في «الطبقات» للشعراني من أطول الترجمات، حيث إنه لخَّص كلامه ووصاياه فيها، وله مؤلفات عدة، ونظم وموشحات ظريفة.

ذكر الحافظ المناوي: أنه لما حجَّ عطش الحجاج حتى أشرفوا على التلف، فأتوه، فأنشد موشحه الذي أوله:

أَسقِ العطاش تكرما   والعقل طاش من الظما

=

ممن أحببته من أجله.

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي[١] رحمه الله: عليك بتكثير سوادِ القومِ؛ فإن «من كثَّرَ سوادَ قوم.. فهو منهم»[٢].

وقال أيضاً: إذا رأيت نفسك معرضة عن موادَدَة أهلِ الله.. فاعلم أنك مطرودٌ عن باب الله.

وقال أيضاً: عليك بصحبةِ الفقراء[٣]؛ فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك

= فأمطروا كأفواه القِرب.

انظر «طبقات الشعراني» ٢/ ٢٢، «جامع كرامات الأولياء» ٢/ ٣٥٨.

ومعنى «تزدد به ممن أحببته من أجله»: يعيد الله عليك عوائد بره وإحسانه لحسن حفظك لأخيك الذي أحببته لأجله سبحانه.

(١) محمد الشاذلي ويكنى بأبي المواهب، كان من الظرفاء الأجلاء الأخيار، والعلماء الراسخين الأبرار، وشبهه الشعراني في طبقاته بالشيخ علي وفا رضي الله عنهم أجمعين، له مؤلفات منها: كتاب «القانون» في علوم الطائفة، له عبارات لطيفة في الصحبة، منها: إذا أردت أن تهجر إخوان السوء.. فاهجر قبل أن تهجرهم أخلاقك السوء؛ فإن نفسك أقرب إليك، والأقربون أولى بالمعروف.

(٢) هو جزء من حديث أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١١٧٠) وعزاه إلى أبي يعلى وعلي بن معبد في كتاب «الطاعة» عن ابن مسعود، وإلى ابن المبارك في «الزهد» عن أبي ذر موقوفاً.

(٣) ولا يخفى أن كلمة الفقراء عند السادة الصوفية لها مدلولها الخاص، فالفقير: هو الذي لا يستغني إلا بالله، ويتحقق بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فليس الفقر الفاقة والعدم، وإنما هو الثقة بالله تعالى والرضا بما قسم.

وللشيخ أبي مدين التلمساني (ت ٥٩٤هـ) قصيدة في مدحهم مطلعها:

ما لذّة العيشِ إلا صحبةُ الفقرا ... همُ السلاطينُ والساداتُ والأمرا

فاصحبهمُ وتأدب في مجالسهم ... وخلِّ حَظَّك مهما قدَّموك ورا

=

يوم القيامة مع ما يحملون عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب. . لكان في ذلك كفاية، وكم استضيءَ لصحبتهم فقير، وجُبِرَ كسير، وارتفع وضيعٌ، وسُتِر شنيعٌ، وهلك ظالم، وارتفعت مظالم، وفيهم ورد الحديث: «بهمْ ترزقونَ وتمطرونَ وترحمونَ»[١].

وقال الشيخ سليمان الخضيري[٢] رحمه الله: من أراد أن يعطى الخيرَ الكثيرَ. . فليصاحب أهل المراقبة.

= وقد جرى هذا المصطلح على ألسنة السلف، ففي ترجمة الحارث المحاسبي عند القشيري في «رسالته» المشهورة قال الحارث: إذا قدّمت إلى فقير. . فقدِّم إليه مثل هذا. وكثيراً ما ترى في ترجماتهم: صحب الفقراء وتأدّب بآدابهم.

(١) هذه قطعة من الحديث المشهور عند أهل الحديث بحديث «الأبدال»، وقد ورد بألفاظ عدة، وطرق متباينة، ومنها:

ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٢٤٩) بسند قال عنه الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٦٣ حسن، عن أنس رضي الله عنه: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون وبهم تنصرون».

ولأحمد من حديث شريح قال: ذكر أهل الشام عند علي رضي الله عنه وهو بالعراق، فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «البدلاء بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل. . أبدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث، ويُنْتَصر بهم على الأعداء، ويُصْرَف عن أهل الشام بهم العذاب».

قال الحافظ السخاوي: رجاله من رواة الصحيح، إلا شريحاً وهو ثقة، وقد سمع ممن هو أقدم من علي رضي الله عنه.

انظر «المقاصد الحسنة» (٨)، «فيض القدير» ٥/ ٣٠٠، «تذكرة الموضوعات» ١٩٤.

(٢) من أعيان القرن العاشر، كان على قدم عظيم في التزهد والتعبد، سمع الحديث من السيوطي والقطب الأوجاني، وأخذ الطريق عن المرحومي وغيره، وكان الشيخ محمد بن عنان (وسيأتي) مع علو مقامه يعظمه ويزوره، توفي في حدود الستين والتسع مئة. «الكواكب الدرية» للمناوي ٤/ ٥٨.

وقال سيدي علي الخواص[١] رحمه الله: من أراد أن يكمل إيمانه وأن يحسن ظنه.. فليصاحب الأخيار.

وقال سيدي أفضل الدين[٢] رحمه الله: عليك بالودِّ في الله؛ فقد ورد أن الله يقول لعبده يوم القيامة: «هل واليت لي ولياً، أو عاديت لي عدواً؟»[٣].

---

(١) من أتبل حبُّه قلبَ الإمام الشعراني، فلن تظفر بكتاب للشعراني إلا وللخواص منه نصيب وافر، قال فيه: شيخي وأستاذي علي الخواص البُرُلُّسي رضي الله تعالى عنه ورحمه، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، كانت مدة صحبتي له عشر سنين وكأنها كانت ساعة، وله كلام نفيس رقمنا غالبه في كتابنا المسمى بـ«الجواهر والدرر» ط، كان يقول:

لا يصير الرجل عندنا معدوداً من أهل الطريق.. إلا إن كان عالماً بالشريعة المطهرة، مجملها ومبينها، ناسخها ومنسوخها، خاصها وعامها، ومن جهل حكماً واحداً منها.. سقط عن درجة الرجال. اهـ

«طبقات الشعراني» ٢/ ١٥٠، وراجع ترجمة الشعراني في المقدمة.

(٢) أبو الفضل الأحمدي، أخو الشعراني في الطريق، صحبه نحو خمسة عشر عاماً، وقال عنه: سيدي؛ لأنه من حق المسلم على أخيه كما سيأتي، كان يقول: بواطن هذه الخلائق كالبلور الصافي، أرى ما في بواطنهم كما أرى ما في ظواهرهم. كان كثير الخدمة لإخوانه، يحمل نعالهم، ويتحمل عنهم، توفي رحمه الله (٩٤٢هـ).

«طبقات الشعراني» ٢/ ١٧٣.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٣٣٧ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء أنْ قلْ لفلان العابد، أما زهدك في الدنيا: فتعجلت راحة نفسك، وأما انقطاعك إلي فتعززت بي، فماذا عملت فيما لي عليك؟ قال: يا رب وما لك عليّ؟ قال: هل واليت لي وليّاً أو عاديت لي عدوّاً».

وكذلك أخرجه الخطيب في «تاريخه» ٣/ ٢٠٢، وذكره الحكيم في «نوادره» ٤/ ٨٤ وبيّن الحافظ المناوي ضعفه في «فيض القدير» ٣/ ٧٠.

وقال أيضاً: من أراد أن يكون من أكابر أهل المقابر.. فليصاحب في الله.

قلت: يؤيده ما حكاه اليافعي[1] في كتابه «روض الرياحين» عن بعض الأولياء أنه قال: سألت الله تعالى أن يريني مقاماتِ أهل المقابر، فرأيت في ليلة من الليالي كأن القيامة قد قامت، والقبور قد انشقت، وإذا منهم النائمُ على السندس، ومنهم النائمُ على الحرير والديباج، ومنهم النائم على الريحانِ، ومنهم النائم على السرر، ومنهم الضاحك، ومنهم الباكي، قال: فقلت: يا رب! لو شئت ساويت بينهم في الكرامة، فنادى منادٍ من أهل القبور: يا فلان! هذه منازل الأعمال:

أما أصحاب السندس: فهم أهل الخلق الحسن، وأما أصحاب الحرير والديباج: فهم الشهداء، وأما أصحاب الريحان: فهم الصائمون، وأما أصحاب الضحك: فهم التائبون، وأما أصحاب البكاء: فهم المذنبون، وأما أصحاب المراتب: فهم المتحابون في الله تعالى.

قال اليافعي: هكذا ذكر في الأصل الذي نقلت منه، أعني فسَّر أصحاب المراتب ولو لم يتقدم للمراتب ذكر، وتقدم ذكرُ السرر ولم يفسر أصحابها بعد (منهم) فلعله أراد بالمراتب السررَ المتقدمَ ذكرها؛ لأن حقيقة المراتب هي المناصبُ الشريفة، والمقاماتُ العالية المنيفة، ولا شك أن أصحاب السرر أشرف مرتبة، وأعلى منزلة ممن على الأرض، وإن كان أهل الأرض على الحرير وغيره، مع أن السرر المذكورة المعدة للإكرام لا تخلو من الفرش العزيزة غالباً، وإن لم تذكر معها كما قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فلم يذكر سبحانه الفرش في هذه الآية، ومعلوم أن

---

(١) أبو محمد، عبد الله بن أسعد اليماني اليافعي، نزيل مكة وشيخ الحرم، ولد سنة (٦٦٨هـ) وبرع في الفقه والعربية والأصلين، مؤرخ باحث متصوف، له شعر رائق ومؤلفات عدة، منها: «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» و«روض الرياحين» المذكور، توفي سنة (٧٦٨هـ).

السرر المذكورة عليها الفرش المذكورة في آية أخرى، وإذا قال قائل: جلس الملك على سريره، وجلسنا عنده.. علم من ذلك شيئان:

أحدهما: أن السرير مفروش.

الثاني: أن الملك إنما جلس على السرير ليرتفع على من عنده برفعة المجلس، مع رفعة المملكة ولا يرضى أن يجلس معه على السرير غيره.

قال: فعلى هذا يكون المتحابون في الله أفضلَ من سائر المذكورين في هذه الحكاية، وقد ورد حديث الترمذي الصحيح: قال الله تعالى: «المتحابونَ في جلالي لهم منابرُ من نورٍ يغبطُهم النبيّونَ والشهداءُ»[1]، فقد ظهر من هذا الحديث ما يؤيد المنام المذكور، أنهم أصحاب المراتب،

---

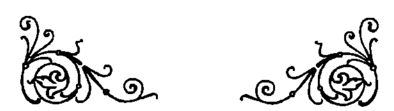
(١) الترمذي (٢٣٩٠)، عن سيدنا معاذ رضي الله عنه، وأحمد ٥/ ٢٣٦، ٣٢٨، وهو بتمامه:

عن أبي مسلم الخولاني ـ عبد الله بن ثوب ـ قال: دخلت مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي ﷺ، فإذا فيهم شاب أكحل العينين، براق الثنايا، ساكت، فإذا امترى القوم (شَكُّوا) في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال: معاذ بن جبل، فوقع له في نفسي حبّ، فكنت معهم حتى تفرقوا، ثم هجَّرتُ (بكّرت) إلى المسجد، فإذا معاذ بن جبل قائم يصلي إلى سارية، فسكت لا يكلمني، فصليت ثم جلست فاحتبيت برداء لي، ثم جلس لا يكلمني، وسكت لا أكلمه، ثم قلت: والله إني أحبك، قال: فيم تحبني؟ قال: قلت: في الله تبارك وتعالى، فأخذ بحُبوتي فجرَّني إليه هنيَّة ثم قال: أبشر إن كنت صادقاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء» قال: فخرجت، فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: يا أبا الوليد! ألا أحدثك بما حدثني معاذ بن جبل في المتحابين؟ قال: فأنا أحدثك من النبي ﷺ يرفعه إلى الربِّ عز وجل قال: «حقَّت محبَّتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ».

وناهيك بها من مراتب، وأكرمْ بها من مناصب، احتوت على شرفٍ جلَّ قدره وعظم فخره، مع ما لهم من السلسبيل ـ كذا في الأصل السلسبيل[1] ـ الأهنا، والجمال الأسنى، والنعيم المقيم في جوار المولى الكريم، وأما ذكر السرر في المنام المذكور، وذكر منابر النور في الحديث المشهور: فليس بينهما تناقض، ولا قادح مذكور؛ فالمنابر تكون في القيامة، والسرر تكون في القبور، كما روي في المنام المذكور. انتهى كلام اليافعي رحمه الله تعالى[2].

والآثار في فضل المتحابين في الله كثيرة، وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.



(١) في المطبوع: (العيش) بدل (السلسبيل).

(٢) «روض الرياحين في حكايات الصالحين» ١٩٧، القصة رقم ١٦١.

الفَصْلُ الثَّانِي

في ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِ الصُّحْبَةِ

اعلم ـ وفقني الله وإياك إلى ما يحب ـ أن حقوق الصحبة كثيرة، ولكن نذكر لك جملة من الحقوق التي لا بُدَّ منها في طريق العشرة والمخالطة، واعلم أيضاً: أن المشايخ قد حثُّوا على الاعتناء بحقوق الإخوان[1]، وقالوا: من ضيَّعَ حقوق إخوانه.. ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه، وإذا ابتلى الله عبداً بذلك.. مقتَهُ، وإذا مقت الله عبداً.. طرحه في النار.

إذا علمت ذلك.. فأقول وبالله التوفيق:

ستر العيوب وتحسين الظن

من حق الأخ على الأخ: أن يتعامى عن عيوبه؛ فقد قال المشايخ: من نظر إلى عيوب الناس.. قلَّ نفعه وخرب قلبه. وقالوا: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، خبيراً بها.. فاعلموا أنه قد مُكِر به.

وقالوا: من علامات الاستدراج للعبد، نظره في عيوب الناس، وعماه عن عيوب نفسه.

---

(١) الحقوق: قد يقصد منها الوجوب، وقد يراد الندب الشديد، وقد وردت في كثير من أحاديث النبي ﷺ، منها ما أخرجه أحمد، ومسلم في «صحيحه»، والبخاري في «الأدب المفرد»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«حق المسلم على المسلم ست، قيل: ما هنّ يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته.. فسلِّم عليه، وإذا دعاك.. فأجبه، وإذا استنصحك.. فانصح له، وإذا عطس فحمد الله.. فشمته، وإذا مرض.. فعُده، وإذا مات.. فاتبعه».

والإمام الشعراني في هذا الفصل سيذكر ستين ونيفاً من الحقوق، كلها مستمدٌّ من هدي الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم.

وقالوا: ما رأينا شيئاً أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلوب، ولا أسرع في هلاك العبد، ولا أقرب من المقت، ولا ألزم لمحجة الرياء[١] والعجب والرياسة.. من قلة معرفة العبد عيوبَ نفسه، ونظره في عيوب الناس.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يحمل ما يراه منه على وجهٍ من التأويل جميل ما أمكن، فإن لم يجد تأويلاً.. رجع على نفسه باللوم.

وفي وصية سيدي إبراهيم الدسوقي[٢]: لا تنكروا على أخيكم حاله، ولا لباسه، ولا طعامه، ولا شرابه؛ فإن الإنكار يورث الوحشةَ والانقطاعَ عن الله تعالىٰ، ولا إنكار على أحد إلا إن ارتكب محظوراً صرحت به الشريعة المطهرة، فإن الناس خاص، وخاص الخاص، ومبتدئ، ومُنْتَهٍ، ومتشبه، ومتحقق، والقوي لا يقدر على المشي مع الضعيف، وعكسه، والله تعالى يرحم البعض بالبعض[٣].

---

(١) المحجة: جادة الطريق.

(٢) إبراهيم الدسوقي القرشي الهاشمي، القطب الشهير في زمانه، من أعيان القرن السابع الهجري، ت (٦٧٦هـ)، كان يتكلم لغات شتى، له عبارات نورانية عالية، ونظم رقيق، جمع جلّ ذلك في كتاب له اسمه «الجواهر» لخصه الشعراني في طبقاته. «طبقات الشعراني» ١/ ١٦٥.

(٣) فما نراه اليوم من عاجل الإنكار من بعض الإخوة، دون مراعاة لهذه الوصية النفيسة، سبب رئيس لوجود الوحشة بيننا، كما ذكر رحمه الله، والناس ـ كما ذكر الشيخ ـ درجات، وليس كل الناس يعامل معاملة واحدة، والداعية يجب عليه أن يدرك هذه الحقيقة قبل أن يتصدر لنصح الناس، وأن يأخذ بفقه الدعوة إلى الله، فكم من أخ خسرناه في صفِّنا لعاجل إنكارٍ التوى به لسانُ داعية أخرق لم يعِ ما يقول.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن في ذلك تركاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن ليعلم =

ومن كلام الإمام سعيد بن المسيَّب[1]: ما من شريف، ولا ذي فضل.. إلا وفيه نقص، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه، وُهِب نقصه لفضله.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يرجو له من الخيرات، والمسامحة وقبول التوبة، ولو فعل من المعاصي الإسلامية[2] ما فعل، كما يرجو ذلك لنفسه.

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا ينظر إلى زلَّةٍ سبقت، ولا يكشف له عورة سُترت، وفي الحديث: «منْ رأى عورةً فسترها.. كانَ كمَنْ أحيا

= أن لهذه القاعدة ـ والتي هي قطب رحى الدين ـ فقهاً وضوابط لابدّ من الأخذ بها، ومطالعة الكتب التي تبحث فيها، ومتابعة الصالحين في معاملاتهم ودعوتهم، فقد يكون إعراضك عن أخيك تغافلاً محموداً، كما نقل الجاحظ عن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه قولَه:

صلاح شأن جميع التعايش والتعاشر ملءُ مكيال: ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل. «البيان والتبين» ١/ ٧٣. وانظر الحديث الآتي كذلك.

(١) صهر سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، من أكابر التابعين، وأجل الرواة المحدثين، كان كثير المجاهدة لنفسه، قال: ما فاتتني فريضة في جماعة منذ أربعين سنة، وكان قد أدرك أيام الفتن فلم يبرح مسجد رسول الله ﷺ، وكان لايعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ، فقد تُرك الأذان في أيام الحرَّة ثلاثة أيام كما روى ذلك ابن النجار والدارمي. توفي سنة (٩٣هـ)، وعبارته هذه ذكرها المؤلف في «طبقاته» ١/ ٣٠، «الحلية» ٢/ ١٨٤.

وفي معنى عبارته هذه قول أبي بكر الصنوبري:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أنْ تُعدَّ معايِبُهْ

وقول الآخر:

أردتَ لكيما لا ترى ليَ زلَّةً ... ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل؟

(٢) المعاصي الإسلامية: كل معصية لا يكفر صاحبها ولو كانت من الكبائر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

موءودةً من قبرِها»[١].

وقال المشايخ: كل من لم يستر على إخوانه ما يراه منهم من الهفوات.. فقد فتح على نفسه باب كشف عورته، بقدر ما أظهر من هفواتهم.

وقالوا: إذا رأيتم أحداً من إخوانكم على معصية لم يجاهر بها.. فاستروه، فإن تجاهر بها.. فوبِّخوه بينكم، وإن لم ينزجر.. فوبخوه بين الناس مصلحةً له، لا تشفياً فيه؛ فلعله يرعوي وينزجر، وما دام يعصي في قعر داره، ويغلق بابه عليه.. فهو لم يتجاهر، إلا إن كان هناك أطفالٌ، يحكون ما يرون؛ فإنهم كالرجال.

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يعيِّره بذنبٍ ولا غيرِه؛ فإن المعايرة تقطع الوُدَّ، أو تكدر صفاءه.

ومن كلام الحسن البصري: إذا بلغكم عن أحد زلة، ولم تثبت عند حاكم.. فلا تعيروه بها، وكذِّبوا من أشاعها عنه، لا سيما إن كان هو بينكم، ذلك لأن الأصل براءة الساحة، حتى تقام البينة العادلة عند الحاكم، ثم بعد ثبوت ذلك عنده، فإياكم أن تعيروه أيضاً، فربما عافاه الله وابتلاكم.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٤٧ ـ ١٥٣، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٥٨)، وأبو داود (٤٨٩٢)، بقصة: عن دُخَين ـ كاتب عقبة بن عامر ـ قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داعٍ لهم الشُرَط فيأخذوهم، فقال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم، قال: ففعل فلم ينتهوا، قال: فجاء دخين فقال: إني نهيتهم فلم ينتهوا، وأنا داعٍ لهم الشُرط، فقال عقبة: ويحك! لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن.. فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

وفي رواية أحمد ٤/ ١٠٤: «من علم من أخيه سيئة فسترها.. ستره الله عز وجل بها يوم القيامة».

ولأبي نعيم في «الحلية» (٧٠٦٩) في ترجمة يزيد بن ميسرة: «من ستر عورة.. فكأنما أحيا موءودة».

وانظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ١٦٨ وقول الحافظ عبد العظيم رحمه الله تعالى فيه.

وفي الحديث: «من عيَّر أخاه بذنب.. لم يمت حتى يعملَ ذلك الذنب»[١].

ومن كلام سيدي علي وفا: لا تَعِبْ أخاك بما أصابه من مصائب دنياك؛ فإنه في ذلك إما مظلوم سينصره الله، أو مذنب عوقب فطهَّره الله، ومن الرعونة أن تفتخر بما لا تأمن سلبه، أو تعيِّر أحداً بما لا يستحيل في حقك، وأنت تعلم أن ما جاز على مثلك.. جاز عليك[٢].

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا ينظر له بعين الاحتقار؛ فقد قال المشايخ: من نظر إلى أخيه بعين احتقار.. عوقب بالذل والخزي.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، ثم قال: هذا حديث غريب، (كذا في النسخة المعتمدة) وليس إسناده بمتصل، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل، وروي عن خالد بن معدان أنه أدرك سبعين من أصحاب النبي ﷺ، ومات معاذ بن جبل في خلافة عمر بن الخطاب، وخالد بن معدان روى عن غير واحد من أصحاب معاذ عن معاذ غير حديثٍ.

غير أن الحافظ المناوي قال في «فيض القدير»: وقال ـ يعني الترمذي ـ: حسن غريب، وليس إسناده بمتصل.

وقال صاحب «تحفة الأحوذي» ٧/ ١٧٣: (مع انقطاعه قد حسنه، فلعل تحسينه لمجيئه من وجه آخر).

فكلمة (حسن): ساقطة من نسخة دار إحياء التراث، والتي اعتنى بأولها الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى.

وقال الترمذي عقبه: قال أحمد: «من ذنب قد تاب منه».

واختُلِف مَنْ أحمد؟ قال المباركفوري: هو أحمد بن منيع شيخ الترمذي، وقيل المراد: الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) كذا في «الطبقات الكبرى» للمؤلف، وفيه زيادة على قوله: (أو مذنب عوقب فطهَّره الله، أو مبتلىً قد وقع أجره على الله، وقال: ومن الرعونة...) «الطبقات للشعراني» ٢/ ٢٤.

وفي الحديث: «من نظر إلى أخيه نظرة وُدٍّ.. غفر الله له»[١].

ومن حق الأخ على الأخ: إذا اطلع على عيب فيه أن يتهم نفسه في ذلك، ويقول: إنما ذلك العيب فيّ؛ لأن المسلم مرآة المسلم[٢]، ولا يرى الإنسانُ في المرآة إلا صورة نفسه.

وقد صحب رجل أبا إسحاق، إبراهيمَ بن أدهم[٣]، فلما أراد أن يفارقه.. قال له: نبهني[٤] على ما فيَّ من العيب، فقال له: يا أخي! إني لم أر لك عيباً؛ لأني لحظتك بعين الوداد، فاستحسنت منك ما رأيت، فسل غيري عن عيبك. وفي هذا المعنى أنشدوا:

[الطويل]

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أنَّ عينَ السخطِ تبدي المساويا[٥]

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي ٢/ ١٤١، عن ابن عمرو بن العاص، والطبراني في «الأوسط» (٨٢٤٧) عن ابن عمر بلفظ: «من نظر إلى أخيه نظرة مودة.. لم تكن في قلبه عليه إحنة ـ حقد وغضب ـ لم يطرف حتى يغفر له ما تقدم من ذنبه» قال الهيثمي: فيه سوار بن مصعب، متروك. «فيض القدير» ٦/ ٢٣٣.

(٢) ورد حديث رواه ابن منيع عن أبي هريرة رضي الله عنه: «المسلم مرآة المسلم، فإذا رأى به شيئاً ـ في ثوبه أو بدنه نحو قذر أو قذاة كما ذكر المناوي ـ فليأخذه»، قال الحافظ المناوي: وفيه يحيى بن عبيد الله، قال الذهبي: قال أحمد: غير ثقة. «فيض القدير» ٦/ ٢٧١.

(٣) إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخي، كان من أبناء الملوك، عُرف بشدة الورع، حتى أنه كان يأكل الطين عند فقد الحلال الصرف، كان جلُّ دعائه: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك. وكان إذا عمل.. ارتجز:

اتـخـذِ الله صـاحـبـا ودعِ الـنـاس جـانـبـا

ذكر الشعراني تلك القصة في «طبقاته»، توفي رضي الله عنه (١٦٢هـ).

«الرسالة القشيرية» ٤٣، «طبقات الصوفية» ٢٧، «حلية الأولياء» ٧/ ٤٢٦، «طبقات الشعراني» ١/ ٦٩.

(٤) في (ب) و(ج): (لو نهيتني) بدل (نبهني).

(٥) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ت (١٢٩هـ). وقبله: =

هو أعلم بمن اتقى

ومن حق الأخ على الأخ: أن يرى نفسه دونه على الدوام، وذلك على سبيل اليقين، لا على سبيل الظن والتخمين(١)؛ فقد قالوا: من لم ير نفسه دون أخيه، لم ينتفع بصحبته.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: لمّا علم أهل الله، أن كل نبات لا ينبت ولا يثمر، إلا بجعله تحت الأرض، تَعْلُوه الأرجل.. جعلوا نفوسهم أرضاً للكل.

ومن كلام سيدي علي وفا: إنما جعل لكم الأرض بساطاً؛ ليعلمَكم التواضع، فتواضعوا تنبسطوا.

= ولست براءٍ عيب ذي الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كان راضيا

انظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي ٣٩، «عيون الأخبار» لابن قتيبة ٣/ ١١.

(١) وكون ذلك على سبيل اليقين ليحصل الانتفاع، فمن عادة المرء أن يسترذل محاكاة من هو دونه، ناهيك عن حجب خاتمتك وخاتمته عنك، فلعل الله يختم له بالحسنى وللمعترض بالعسرى؟!

وإن من أعظم الحجب التي تمنع السالك عن الانتفاع.. حجاب النِّدِّيَّة، حيث ترى الأخ الفلاني نِدّاً لك، فتترك الانتفاع منه لما توحيه إليك نفسك من ذلّ الأخذ عنه، وقد قال أهل الحديث: لا ينبل الرجل من أصحاب الحديث حتى يكتب عمن فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه. «تدريب الراوي» ٢/ ١٤٧.

وكان الإمام النووي رضي الله عنه يتصدق ويسأل الله عز وجل أن يحجب عنه عيوب أشياخه حتى ينتفع منهم. وكان يقول في نفي الاحتقار وترك العجب «المجموع ١/ ٤٦»: وطريقه في نفي الاحتقار التأدُّبُ مع الله بما أدبنا الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى، وأطهر قلباً، وأخلص نية، وأزكى عملاً. وقال: ولا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سنٍّ أو نسبٍ أو دين.. بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده.

الإيثار والفتوة

ومن حق الأخ على الأخ: أن يؤثره على نفسه في كل شيء؛ فقد قالوا: لا يسود أحد على أقرانه إلا إن آثرهم على نفسه، واحتمل أذاهم، ولم يشاركهم في شيء مما استشرفت إليه نفوسهم[١].

ومن حق الأخ على الأخ: أن يخدمه إذا مرض؛ فقد ذكروا أن الفتوة[٢] في خدمة الإخوان.

ومن كلام الأستاذ الجنيد[٣] رحمه الله: ينبغي للإنسان أن يخدم إخوانه، ثم يعتذر إليهم بأنه ما قام بواجب حقِّهم، ويقر لهم بالخيانة على نفسه ولو علم أنه بريء الساحة، ما لم يترتب على ذلك حدٌّ أو تعزير، وإلا.. دخل فيمن ظلم نفسه، وذلك حرام.

---

(١) وأصل هذا المعنى من قوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» قال النووي رحمه الله: حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة. «الأربعين» الحديث ٣١.

(٢) الفتوة: مَلَكَة في الشخص تحمل على البذل والجود، بل تقتضي قوة الإيثار، قال ﷺ: «لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم» رواه القشيري في «رسالته» ٣٩٠ وهو متفق عليه، ومطلعه: «من نفَّس عن مسلم كربة..» الحديث، وأجلى مشهد للفتوة للنبي ﷺ يومَ القيامة، حيث يقول الخلق: نفسي نفسي، وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي».

انظر «الرسالة القشيرية» ٣٩٠، «المعجم الصوفي» ١٩٠.

(٣) الجنيد بن محمد الزجاج، أبو القاسم، إمام هذه الطائفة رضي الله عنهم، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، تفقه على مذهب الشافعية وأبي ثور، صحب خاله السري السقطي، والحارث المحاسبي، توفي سنة (٢٩٧هـ)، هو القائل:

الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، وما أخذنا طريق التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات. انظر: «طبقات الشعراني» ١/ ٨٤، «الرسالة القشيرية» ٧٨، «حلية الأولياء» ١٠/ ٢٧٤، «طبقات الصوفية» ١٥٥.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: من تعزز على خدمة إخوانه.. ورثه الله ذلاً لا انفكاك له منه أبداً، ومن خدم إخوانه.. أُعطي من خالص أعمالهم.

التوقير والإكرام

ومن حق الأخ على الأخ: أن يحترمه ويوقره، لا سيما إذا استحق ذلك كأنْ كان من العلماء، أو من حملة القرآن الكريم، أو من عترة رسول الله ﷺ.

وفي وصية الإمام النووي(١): لا تستصغر أحداً؛ فإن العاقبة منطوية، والعبد لا يدري بِمَ يختم له، فإذا رأيت عاصياً.. فلا تقدِّم نفسك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقاماً، وأنت من الفاسقين، ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيراً.. فاحكم بأنه خير منك، باعتبار أنه أحقر منك ذنوباً(٢)، وإذا رأيت من هو أكبر منك سناً.. فاحكم بأنه خير منك، باعتبار أنه أقدم منك هجرة في الإسلام، وإذا رأيت كافراً.. فلا تقطع له بالنار، لاحتمال أنه يسلم ويموت مسلماً.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يثني عليه في غيبته وفي حضوره بطريق الشرع؛ فإن ذلك مما يزيد في صفاء المودة(٣).

---

(١) أبو زكريا، يحيى بن شرف النووي، الإمام العظيم، والنووي والنواوي: نسبة إلى (نوى) من قرى حوران، وليَ مشيخة دار الحديث الأشرفية، وكان رضي الله عنه متحققاً بالآداب التي ذكرها في كتابه الموسوعي «المجموع» وفي سنة (٦٧٦هـ) قفل راجعاً إلى نوى، وزار مقبرة شيوخه فقرأ وبكى ودعا، وزار أصحابه وودعهم، ثم توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه، انظر «تحفة الطالبين» في ترجمته لتلميذه ابن العطار رحمه الله.

(٢) أي: أقلُّ منك ذنوباً.

(٣) والثناء في الغيبة أجلُّ من الثناء في الحضور؛ لأنه أبعد عن مشاهدة حظِّ النفس، وأخلص وأرجى في القبول، ما دام ذلك بطريق الشرع، فلا تثني عليه بما ليس فيه، وعارٌ على الأخ ألَّا يبصر في أخيه جملة محاسن، وأن يكون ثناؤك لا لغرض تسعى إليه، بل لتنال أجرك من الله تعالى، وألَّا تبالغ في مدحه إن كنت تعلم أنه يغترُّ بذلك، وأجهل الناس: من ترك يقينَ ما عنده لظنِّ ما عند الناس.

وقد روى الطبراني وغيره: «إذا مُدِحَ المؤمنُ - يعني الكامل - في وجهه.. ربا الإيمانُ في قلبِهِ»[١]؛ أي: لأن المؤمن الكامل إذا مدح.. شكر الله على ستر نقائصه، وإظهار محاسنه فيزيد إيمانه بذلك، ثم لا يخفى أن ذلك إنما يكون قبل صفاء المودة وصحتها، أما إذا صفت المودة، وصحَّت.. فإن الثناء حينئذٍ ليس بجيد، وأنشدوا:

[الوافر]

إذا صفتِ المودَّةُ بينَ قومٍ وصحَّ ولاؤُهُمْ سَمُجَ الثَّناءُ[٢]

ومن حق الأخ على الأخ: أن يكرمه إذا ورد عليه، بأن يتلقاه بالترحيب، وطلاقة الوجه، ويأخذه بالعناق إن كان رجلاً، ويفرش له شيئاً يقيه من التراب[٣].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٤٢٤)، والحاكم ٣/٥٩٧، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال الحافظ المناوي: قال العراقي: سنده ضعيف، والمراد المؤمن الكامل الذي عرف نفسه، وأمن عليها من نحو كبرٍ وعجبٍ، بل يكون ذلك سبباً لزيادته في العمل الصالح. «فيض القدير» ١/ ٤٤٠.

وعبارة الشعراني رحمه الله في الاعتراض دقيقة للغاية، وهذا هو التوفيق بين هذا الحديث وحديث: «احثوا في وجه المداحين التراب» مسلم (٣٠٠١).

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: (... والعارفون إذا مدحوا.. انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحق).

(٢) أنشده القشيري في «رسالته»، قال: وقال الجنيد: إذا صحت المحبة.. سقط شرط الأدب، وفي معناه أنشد الأستاذ أبو علي - يعني الدقاق -:

إذا صفت المودة بين قومٍ ودام ودادهم سمج الثناء

وأصله قول أسماء بن خارجة: إذا قَدُمت المودة.. سمج الثناء.

(٣) كما فعل ذلك سيدنا رسول الله ﷺ مع عدي بن حاتم عندما جاءه وافداً، فقدّم له النبي ﷺ وسادة يجلس عليها، فقال عدي: فعرفت أنه ليس بمَلِك. «زاد المعاد» ١/ ٤٣.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يوسِّع له في المجلس إذا رآه؛ فإن ذلك مما يزيد في تقوية المودة، وفي الحديث: «إن للمسلمِ حقاً إذا رآه أخوه أن يتزحزحَ لهُ»[١].

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يدعوه باسمه فقط.

ومن وصية بعضهم: إذا ناديت أخاك، فعظِّمْه.. تثبت مودته، ومن الجفاء للأخ نداؤه الخالي عن الكنية واللقب، ولفظ السيادة[٢]، وكذلك أولاده وأحفاده، غيبةً وحضوراً.

الاعتراف بالفضل

ومن حق الأخ على الأخ: أن يعترف له بالفضل، وأن يظهر له عدم مكافأته، لا سيما إن كان قد بادأه بهدية؛ لأنه لا يقدر على مكافأة بداءته، كما قال الشيخ محي الدين ابن العربي[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٩٣٣)، عن واثلة بن الخطاب قال: دخل رجل إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد قاعد، فتزحزح له رسول الله ﷺ، فقال الرجل: يا رسول الله! إن في المكان سعة، فقال ﷺ: «إن للمسلم..» الحديث، وانظر «فيض القدير» ٢/ ٥٠٢. ويشهد لمعناه حديث عدي المزبور في التعليق السابق.

(٢) لفظ السيادة: نحو (سيدي) درج على ألسنة العظماء من سلفنا الصالح رضي الله عنهم، ومن أجمل ما تقع عليه العين ويطرب لسماعه القلب قول سيدنا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حقِّ سيدنا الصديق أبي بكر رضي الله عنه وسيدنا بلال بن رباح رضي الله عنه عندما قال قبل البيعة في حقِّ الصديق: «بل نبايعك أنت؛ فأنت سيِّدُنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ» البخاري (٣٦٦٨)، وفي البخاري كذلك (٣٥٤٥): كان عمر يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) محمد بن علي الحاتمي، من أبناء الملوك، وأبو مسلم الخولاني ويحيى بن يغان الزاهد خالانه، سماه الشيخ أبو مدين «الشيخَ الأكبر». قال الشعراني: الشيخ العارف الكامل المحقق المدقق، أحد أكابر العارفين، سيدي محي الدين ابن العربي، بالتعريف كما رأيته بخطِّه في كتاب «نسب الخرقة».

=

وفي الحديث: «من أودع معروفاً.. فلينشره، ومن نشره.. فقد شكر، ومن كتمه.. فقد كفر، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس»[١].

زيارة الإخوان

ومن حق الأخ على الأخ: أن يزوره كل قليل من الأيام؛ ففي الحديث «امش ميلاً عدْ مريضاً، امش ميلين أصلح بين اثنين، امش ثلاثة أميال زر أخاً في الله تعالى»[٢].

وفيه أيضاً: «الزائر أخاه في بيته، الآكل من طعامه.. أرفع درجة من المطعِم»[٣].

= نقل الثناء عليه من السهروردي والعز بن عبد السلام وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وابن حجر الهيثمي، والسيوطي وله رسالة سماها «تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي»، وكذا الشعراني له كتاب في ذلك، وله «اليواقيت والجواهر»، و«الكبريت الأحمر».

كان كثير الترحال، لا يضع العصا عن عاتقه، فزار قونية والإسكندرية بعد المغرب العربي والأماكن المقدسة، ثم توفاه الله في دمشق سنة (٦٣٨هـ)، ودفن بسفح جبل قاسيون، ومقامه آهِلٌ بالزوّار مشهور.

له مؤلفات عدة؛ منها: «الفتوحات»، وللشيخ ابن حجر الهيثمي رأي في المنع من قراءة أمثالها سداً للذريعة، ولكلٍ مِنَّا مقام معلوم، وما راءٍ كمن سمعا.

انظر «طبقات الشعراني» ١/ ١٨٨، «اليواقيت والجواهر» ١/ ٣ وفيه تعرض لمسألة الدس على كتب الشيخ رحمه الله وبهامشه «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر».

(١) هو عند الضياء في «الأحاديث المختارة» ٣/ ٣٧، وفيه بلفظ: «من أُوليَ معروفاً.. فليذكره، فمن ذكره.. فقد شكره، ومن كتمه.. فقد كفره» وقال: إسناده حسن.

وعند البيهقي في الشعب (٩١١٧): «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» عن مكحول مرسلاً ١٠١، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٢٢٥، عن عطاء بن ميسرة، وانظر «فيض القدير» ٢/ ١٩٥.

(٣) قال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٤/ ٦٩: رواه الخطيب في «تاريخه» عن =

وفيه أيضاً: «إذا زار أحدكم أخاه، فألقى له شيئاً يقيه من التراب.. وقاه الله عذاب النار»[١].

وفيه أيضاً: «زر في الله؛ فإنه من زار في الله..، شيَّعه سبعون ألف ملك»[٢].

وحكى اليافعي عن بعض الأولياء أنه قال: رأيت القطب بمكة، على عجلة من ذهب، والملائكة يجرونها في الهواء، بسلاسل من ذهب، فقلت: إلى أين تمضي؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقت إليه، فقلت له: لو سألت الله أن يسوقه إليك، فقال: وأين ثواب الزيارة يا أخي؟! انتهى[٣].

= أنس، قال ابن الجوزي: لا يصح، وفيه عامر بن محمد البصري عن جده، وهو وأبوه وجده مجهولون. وقال في «الميزان» ٤/ ٢١: عامر بن محمد بصري لا يعرف، وخبره باطل عن أبيه عن جده، وساق له هذا الخبر. وكذا أورده الغماري في «المغير» ٧٢ وقال عنه: باطل.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٨٨)، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال الحافظ المناوي: رمز السيوطي لضعفه، وذلك؛ لأن فيه سويد بن عبد العزيز، متروك. «فيض القدير» ١/ ٣٦٦.

(٢) أخرجه أبو النعيم في «الحلية» ٥/ ٢٣٢، عن أبي رزين، وأوله: يا أبا رزين زر في...، والطبراني في «الأوسط» عنه كذلك كما في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٧٣، وقال الهيثمي، فيه عمرو بن الحصني، وهو متروك، وانظر «فيض القدير» ٤/ ٦٣.

(٣) القصة في «روض الرياحين» ٣٩٢، القصة ٤١٣، وقال: واسم هذا القطب أحمد بن عبد الله البلخي، وأعاد ذكر القصة مع جواب لمن أنكرها ص٤٧٨.

والقطب مصطلح عندهم، وهو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان «مصطلحات القاشاناني» ٨٠. أو هو صاحب أعلى درجات الطريقة، ويسمى بالغوث باعتبار التجاء الملهوف إليه «المعجم الصوفي» ٢٠٢ وهذه الألفاظ مصطلحات عندهم، كالبدل والوتد، ولا مشاحة في الاصطلاح، ومنها ما ثبت =

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي[١]: اسع إلى إخوانك، وإياك أن تنقطع عنهم بحيث يستوحشون فيأتون إلى زيارتك؛ فإن جميع ما مع الفقير من المدد في هذا الزمان، لا يجيء حق طريقٍ واحدٍ يُمْشَىٰ إليه[٢].

وقد كان الإمام الشافعي يزور تلميذه الإمام أحمد بن حنبل[٣] كثيراً، ويزوره الآخر كذلك، فقيل للشافعي في ذلك[٤]، فأنشد رضي الله تعالى عنه:

[الكامل]

قالوا يزورُكَ أحمدٌ فتزورُهُ ... قلتُ: الفضائلُ لا تفارقُ منزلَهْ

إنْ زارني فبفضلِهِ أو زرتُهُ ... فلفضلِهِ فالفضلُ في الحالينِ لَهْ

= بالسنة، كالبدل، فأحاديثه مروية عن سيدنا أنس رضي الله عنه، ومما يقويها قول البخاري في غيره: كانوا لا يشكون أنه من الأبدال.

انظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي (٨).

(١) إبراهيم بن علي بن عمر المتبولي الأنصاري الأحمدي الصوفي، إمام الأولياء في عصره، من أعيان مصر، كان يقول: طهِّر قلبك من محبة الدنيا.. يُجْرِ الله ماء الإيمان في قلبك جداول، ويقول: لا أحب الفقير إلا إن كان له حرفة تكفُّه عن سؤال الناس. مات سنة ثمانين وثمان مئة ونيف.

«الطبقات للشعراني» ٢/ ٨٣، «جامع كرامات الأولياء» ١/ ٤٠٤.

(٢) كأن المعنى المراد: كل المدد في كفة وزيارة الإخوان في الله في كفة أخرى، بل هو أرجح، والله أعلم، فلا يستطيع الفقير أن يوفي حقَّ من جاء يزوره؛ لأن زيارته أعظم أجراً.

(٣) ناصر السنة، أحمد بن محمد بن حنبل، الإمام الهمام الرحلة، أحد الأربعة، له وقفات خلَّدها التاريخ، فهو الذي وقف سداً منيعاً في وجه الزنادقة والوضاعين، واختاره المتوكل بعد الفتنة ليدافع عن كتاب الله من أفكار المعتزلة المبتدعين، كان عندما يسأل عن الأبدال يقول: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمَنْ هم؟! توفي (٢٤١هـ). «طبقات الشعراني» ١/ ٥٤.

(٤) في (أ): (كذلك)، وفي (ب): (لذلك).

فأجابه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه:

[البسيط]

إِن زرتنا فبفضلٍ منكَ تمنحنا أو نحنُ زرنا فللفضلِ الذي فيكَا

فلا عدمنا كلا الحالينِ منكَ ولا نالَ الذي يتمنىٰ منكَ شانيكَا

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: الزيارة للإخوان تزيد في الدين، وتركها ينقصه؛ لأنها كتلقيح النخل، وقد قال القوم: إذا قلَّ رأس مالك.. فزر إخوانك.

قلت: زيارة الإخوان، لا تزيد في الدين إلا مع لزوم أدب الزيارة، والله أعلم.

ومن حق **الأخ على الأخ**: أن يصافحه كلَّما لقيه بنية التبرك وامتثال الأمر، وقد روى الطبراني: «إذا تصافح المسلمان.. لم تُفَرَّق أكفُّهما حتى يغفر لهما»[(١)].

وروى أبو الشيخ: «إذا التقى المسلمان، وسلَّم أحدهما على صاحبه.. كان أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه، فإذا تصافحا.. أنزل الله عليهما مئة رحمة»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨/ ٢٨٠، عن أبي أمامة، قال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٧: فيه مهلب بن العلاء، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وانظر «فيض القدير» ١/ ٣١٨.

والمصافحة سنة مجمع عليها كما قال النووي في «الأذكار»، وأخرج أحمد ٤/ ٢٨٩، وأبو داود (٥٢١٢)، والترمذي (٢٧٢٧)، عن البراء بن عازب مرفوعاً: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان.. إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا».

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «الثواب»، عن عمر بن الخطاب، قال المنذري: ضعيف.

ورواه البزار كما في «كشف الأستار» (٢٠٠٣) عنه كذلك، وقال: لا نعلمه إلا من هذا الوجه، ولم يتابع عمر بن عمران عليه. وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٧: وفيه من لم أعرفهم.

ومن حق الأخ على الأخ: إذا لاقاه، وصافحه أن يصلي ويسلِّم على النبي ﷺ، ويذكِّره بذلك، وقد روى أبو يعلى: «ما من عبدين متحابين، يستقبل أحدهما صاحبه، ويصليان على النبي ﷺ. . إلا لم يتفرقا حتى تغفر لهما ذنوبهما، ما تقدم منها وما تأخر»[١].

تهادوا تحابوا

ومن حق الأخ على الأخ: أن يهاديه كل قليل من الأيام، لا سيما إذا بلغه عنه وقفة[٢] وفي الحديث: «تهادوا تحابُّوا، وتصافحوا يذهب الغلّ عنكم»[٣].

---

(١) رواه أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي في «الشعب» من طريق أبي يعلى (٨٩٤٤).

(٢) الوقفة: ما يعبَّر عنه: أخذ منه موقفاً، أي: نوع حزازة، وسيأتي ص ٩١ الحديثُ عنها، وعن الأدب في التعامل مع الأخ عند حصولها، فانظره هناك.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٤٠٥، والترمذي (٢١٣٠) بلفظ: «تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وَحَر الصدر. . .»، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، كلها عن أبي هريرة رضي الله عنه، وزيادة: «. . . يذهب الغل» وردت عن عطاء الخراساني مرسلاً في «الموطأ»، قال الحافظ السخاوي: والحديث جيد، «المقاصد الحسنة» (٣٥٢).

وصدق رسول الله ﷺ، فالهدية نِعْمَ الرسولُ أيام الوفاق وأيام الشقاق، فإما أن تزيد في المحبةِ والوئام، أو هي بلسم يشفي من ساعات الجفوة، وجربها؛ فإن التجربة أكبر برهان.

والحذرَ الحذر من ردّ الهدية إن قدمها لك أخوك؛ فإنَّ رَدَّها من فعل اللئام، فقد كان النبي ﷺ لا يرد هدية كما روى ذلك البخاري عن عائشة رضي الله عنها، وكلمة: «تهادوا» تدل على مبادلة الهدايا، فمن أهداك شيئاً ـ ولو كان يسيراً ـ أكرمْه بهدية مثلها أو أرفع منها، فهذا من أدب النبوة، ولاسيما إن كان فقيراً، وانظر ترجمة (أم سنبلة الأسلمية) في كتاب «الإصابة» لابن حجر ٤/ ٤٦٣ وقد أهدت رسول الله ﷺ لبناً، فباسطها وقَبِلَه منها وجزاها خير جزاء.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٤٠٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله. . أحب إليّ من حجة بعدٍ =

النصح والعناية

ومن حق الأخ على الأخ: أن يرشده إلى ترك البغي على من بغى عليه، وأن ينتصر بالله تعالى؛ إذْ إرشاد الأخ المظلوم إلى الانتصار بالله تعالى، والتسليم إليه سبحانه.. من أكبر نصرة الأخ.

وفي زبور السيد داود صلى الله عليه وسلم: «يا داودُ! لا تبغي على مَنْ بغى عليك، فمَنْ بغى على من بغى عليه.. تخلفت عنه نصرتي»[1].

= حجة، ولطبقٌ بدانق أهديه إلى أخٍ لي في الله عز وجل.. أحب إليَّ من دينار أنفقه في سبيل الله عز وجل.

(١) أما ترك البغي: فهذا مما لا خلاف فيه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف ٣٣]، أما إن كنت صاحب حق: فلك أن تنتصر ممن بغىٰ عليك عدلاً، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

وروى النسائي (٣٩٥٤) في كتاب عشرة النساء حديثاً طويلاً فيه اختصام أزواج النبي ﷺ في تقديم عائشة رضي الله عنها عليهن (تقديماً في الحب) فأرسلوا زينب بنت جحش رسولاً لهن، فقالت: «يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ووقعت في (أي: سبَّت) عائشة، تقول السيدة عائشة: فاستطالت وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه هل أذن لي فيها، فلم تبرح زينب حتى عرفتُ أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، فلما وقعتُ بها.. لم أنشبها بشيء حتى أنحيت عليها (أفحمتها) فقال ﷺ: إنها ابنة أبي بكر»!.

غير أن الشيخ رحمه الله أراد أن يدل على كمال الأفعال، وما كل الناس يطيق ذلك، وهذا من رحمة الله بعباده، لذلك استدل بقول سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام والله أعلم بصحته، وفي القرآن الكريم وردت قصة البغي بين الخصمين وتحكيم سيدنا داود فيها في سورة (صٓ: ٢٠-٢٦)، والخطاب المزبور إنما جاء لنبي، وليس كل الناس يطيق ذلك، وقصص النبي ﷺ في ترك البغي على من بغى عليه كثيرة جداً، انظرها في الحديث على حلمه ﷺ.

وقد قال العارف بالله أحمد الرفاعي رحمه الله: من انتصر لنفسه وأجاب عنها.. =

المساعدة في الزواج

ومن حق الأخ على الأخ: مساعدته في التزويج، وقد ذكروا أن الإعانة في ذلك أفضل من إعانة الغزاة والمكاتبين؛ إذ هو أفضل نوافل الخيرات، والأجر يعظم بعظم السبب، فلولا النكاح.. ما وُجِد مجاهد ولا عابد لله تعالى(١).

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يغفل عن عيادته إذا مرض، ولا عن خدمته، لا سيما في الليل، وفي الحديث: «ما من رجل يعود مريضاً

= تعب وتلف، ومن سامح الناس وفوض أمره لمولاه.. نصره الله من غير أهل ولا عشيرة.

وانظر إلى قول العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في مثل هذا: والإنسان إذا ناله الأذى من الناس، وصبر عليه وسامح فيه، ولم يفكر بالانتقام والمقابلة من مؤذيه.. كان عاقبة أمره أفضل من عاقبة المنتقم لنفسه، المقابل للسيئة بجزائها، وذلك: أنه إذا تسامح وحلم، وتنازل وكرم.. يشهد في نفسه ومشاعره مشهد السلامة وبرد القلب، كما يشهد الأمن وهدوء البال، بل بعض المعتدين الظالمين الحاقدين: تركُ المقابلة والرد عليه.. أقتلُ له من الرد. «رسالة المسترشدين» ١٤٤.

(١) ويؤكَّد هذا الحق على صاحب السعة، الذي أكرمه الله ببحبوحة من العيش، والنبي ﷺ كما روى الترمذي وغيره قال: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه.. فزوجوه، إلا تفعلوا.. تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

وهذا ـ والله ـ حق، فأغلب الفساد الذي يراه الناظر اليوم إنما يعود إلى فتنة الرجال بالنساء وبالعكس.

وكلٌّ منا يمكنه أن يأخذ بهذا الحق، فالأب يعين ولده على تزويجه، كما ييسر للخاطب من بيته تكاليف الزواج التي أضحت مرهقة للغاية في أيامنا هذه، وكذلك الفتاة يجب عليها أن تراعي ظروف المعيشة اليوم، ولا تجعل من نفسها سلعة تسام في سوق الزواج، والأخ يعين أخاه على قدر استطاعته، بماله أو بجاهه بين الناس حتى قال الشيخ في «الأنوار القدسية» ١٥٨: ولو بقميصه وقبقابه الزائد، وكما ذكر الشيخ رحمه الله، مساعدة الشباب على الزواج أولى من مساعدة المجاهدين وعتق العبيد؛ لأن صيانة النفوس عن دنس المعصية من أولى القربات إلى الله تعالى.

ممسياً.. إلا خرج معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى يصبح، ومن أتاه مصبحاً.. خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي»[(١)].

وينبغي للعائد ألّا يأكل عند المريض؛ ففي الحديث: «إذا عاد أحدكم مريضاً.. فلا يأكل عنده شيئاً»[(٢)].

ومن حق الأخ على الأخ: أن يرشده إلى الوصية إذا حضرته الوفاة، ولا يتبع الحياء الطبيعي في ذلك، والفائدة في ذلك معلومة[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٩٨)، عن علي رضي الله عنه، وبزيادة في آخره: «... وكان له خريف في الجنة» وفي (٣٠٩٩) بغير هذه الزيادة، قال المنذري: هذا موقوف، وكذا رواه الترمذي (٩٦٩) وقال: حسن غريب، والحاكم ١/ ٤٩٢ وغيرهم. انظر «الترغيب والترهيب» ٤/ ١٦٨، و«فيض القدير» ٥/ ٤٨١.

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي أمامة كما في «فيض القدير» ١/ ٤٠٢، وبزيادة: «فإنه (يعني الأكل) حظه من عيادته». والنفي هنا يفيد الكراهة لا التحريم، وتنتفي الكراهة إن كانت بين الأصل وفرعه، ولعلها تنتفي كذلك إن كان ترك الأكل مما يورث الوحشة بين الزائر والمزور كما هو الحال اليوم، ولعل الزائر إن طبّق أدب زيارة المريض كما في السنة لم يجد وقتاً للأكل والشرب، فإنما هو مجلس دعاء وألفة، والحديث كما قال الحافظ المناوي: فيه موسى بن وردان، أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: ضعفه ابن معين.

(٣) الحياء الطبيعي موروث من العادات والأعراف، وإذا اصطدم هذا الحياء مع مطلوبات الشرع.. قدِّم أمر الشرع، فإذا مشى الإنسان في الطريق وهو يرفع صوته ويخاطب نفسه.. سقطت مروءته، غير أن الشرع في صلاة العيد سنَّ التكبير بصوت عالٍ في الطريق عند الذهاب إلى المسجد، فرفع الصوت هنا سنة قد يتخلى عنها الكثيرون؛ لأنها لا توافق طباعهم لحيائهم من ذلك، كذا ذكر الشعراني في «العهود».

والحياء الطبيعي هنا أن يقول القائل: إن أرشدته إلى الوصية قد يرميني والحاضرين إلى أني أتمنى له الموت، فيستحي، ويقع كما قال الشعراني: (استحيا أقوام من قولهم للمريض: أوصِ، فمات وحقوق الناس عليه، ووقع بين ورثته ما لا خير فيه، وذهب أكثر التركة للحكام) «الأنوار القدسية» ١٥٣.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يسهر عنده إلى الصباح، إذا كان في حالة تفضي إلى الموت، فربما كان الأجل في ذلك الوقت، فيفارقه على وفائه بحقه.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يصدقه إذا انتسب إلى أحد من الأكابر؛ من أولياء، أو علماء، أو أمراء.

ومن وصية الشيخ محي الدين ابن العربي: إذا انتسب أخوك إلى أحد من الأكابر.. فاحذر أن تطعن في نسبه ولو في نفسك، فتدخل بين ذلك الشخص وبين الله تعالى، وبين صاحب الفراش، فتقع في إثم كبير، بل ورد: أن الطعن في الأنساب كفر[1].

إياك وتكفير المسلمين

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يكفره بذنب ولو لان الناس به؛ إذ لا تخفى قلة ورع الناس اليوم في الكلام، وعسر معرفة جميع الألفاظ التي يكفر بها الإنسان، والتكفير ـ كما قال شيخ الإسلام السبكي[2] ـ: أمر هائل، أقل ما فيه أنه أخبر عن إنسان أنه خالد في النار، لا تجري عليه أحكام الإسلام، لا في حياته ولا بعد مماته[3].

البغض في الله وكراهية الذنب لا المذنب

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يبغض ذاته إذا وقع فيما لا ينبغي.

---

(١) فقولك لأخيك: أنت لا تنتسب لفلان.. كبيرةٌ من الكبائر إن لم يكن لديك دليل قاطع في ذلك النفي؛ لأنه من باب القذف. وقد ذكر الشعراني رحمه الله هذه العبارة عن الشيخ في «الأنوار القدسية» ١٥٧.

(٢) تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الخزرجي، شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين وأكابر الفقهاء العاملين، وتاج الدين ابنه، ولد في سبك بمصر، وتوفي فيها كذلك سنة (٧٥٦هـ)، وله «شرح للمنهاج» وكتب أخرى. «الدرر الكافية» ٣/ ١٧٧، «هدية العارفين» ١/ ٧٢٠.

(٣) والناس كما قال الإمام رحمه الله في هذا متساهلون، وعن قوله ﷺ: «من قال لأخيه كافر.. فقد باء بها أحدهما» غافلون، فأي جريمة يرتكبها بعض الدعاة اليوم في اتهام إخوته الذين خالفوا رأيه؟! فما يكون منه إلا أن يلقيها دون أن يلقي لها بالاً فيقول: هو كافر!!. انظر «الوصايا» للشيخ الأكبر ١٢٦.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: عداوتنا لأفعال مَنْ أمرنا الحق تعالى بعداوته عداوة شرعية، وعداوتنا لذاته عداوة طبيعية، والسعادة في الشرعية لا في الطبيعية، والغالب في الناس بغضهم لذات مَنْ سمعوا عنه أنه وقع في محرم، وأما إن سمعوا عنه أنه تكلم فيهم بشيء يكرهونه: فإنهم يكرهون أولاده، فضلاً عن ذاته، ويحتقرونه زيادةً عن ذلك، وربما يزعم بعضهم أنه مصيب في احتقاره له، وغاب عنه أن من الجهل المحض احتقار عبدٍ اعتنى به الحق تعالى، وأخرجه من العدم إلى الوجود.

فاحذر ـ يا أخي ـ من ذلك، فإن الحق تعالى ما أمرك أن تحتقر أحداً من خلقه، وإنما أمرك أن تنكر أفعاله المخالفة لشرعه لا غير، فتأمر العاصي وتنهاه، وأنت غير محتقر له.

وتأمل قوله ﷺ في شجرة الثوم: «إنها شجرة أكره ريحها»[١] فما كره ذاتها، وإنما كره ريحها الذي هو بعض صفاتها، فعلم أن عداوتنا للكفار عداوة صفات، بدليل أنهم إذا أسلموا وحسن حالهم.. حرم علينا عداوتهم.

ومن حق الأخ على الأخ: إذا حصل بينه وبينه وقفة.. أن يزيد في بثِّ محاسنه أكثر مما كان قبل الوقفة؛ مراعاة للوُدِّ[٢].

وقد كان السلف الصالح، يمدحون عدوهم كلَّما ذكر اسمه بحضرتهم، بحيث يظن الظانّ أنه من أعظم المحبين لهم، فاقتدِ ـ يا أخي ـ بهم، ولا تتوقف في ذكر أخيك بالمعروف أيام غيظك عليه، واحذر من الوقوع في عرضه، فربما وقع الصلح، فيصير ذلك يكدر صفاء المودة، وتذكَّرْ ما أكلت عنده من الخبز، وما سبق من المعروف، وقلَّ من يفعل ذلك.

(١) أخرجه مسلم (٥٦٥) في باب المساجد عن أبي سعيد، بلفظه، وأما روايات أنها شجرة خبيثة فقد قال النووي أنه ﷺ سماها كذلك لخبث ريحها، فلا تعارض. وهذه من استدلالاتهم اللطيفة رضي الله عنهم.

(٢) انظر (حقّ التهادي) ٨٦.

خدمة الأخوان مقدمة عن النفل المسنون

ومن حق الأخ على الأخ: أن يقدِّم حوائجه الضرورية على عباداته المسنونة، ومعلوم أن الخير الذي يتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله[1].

ومن حق الأخ على الأخ: إذا وقع في حقه بشيء وبلغه.. أن يبادر إلى الاستغفار وإلى كشف الرأس، وإطراقه الأرض، والوقوف عند النعال[2]، وإظهار الندم على ما وقع منه في حق أخيه، ويديم ذلك إلى أن يرحمه أخوه، ثم إن لم يرحمه.. رجع على نفسه باللوم، واعترف بأنه ظالم، وقلَّ من يفعل ذلك.

الاعتذار وقبول العذر

ومن حق الأخ على الأخ: أن يقبل اعتذاره ولو كان مبطلاً؛ فقد روى الترمذي وغيره: «من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب.. فليقبل اعتذاره، محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل.. لم يَرِد على الحوض»[3]، وفي معنى ذلك أنشدوا:

[البسيط]

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ معتذرا ... إن برَّ عندكَ فيما قالَ أو فجرا

فقدْ أطاعكَ من يرضيكَ ظاهرُهُ ... وقدْ أَجَلَّكَ مَنْ يعصيكَ مستترا[4]

---

(١) وهذه قاعدة مشهورة، وقد دخل الحسن على ثابت البناني لينطلق في حاجة لرجل فقال ثابت: إني معتكف، فقال الحسن: لأن أقضي حاجة أخٍ لي مسلم أحب إليَّ من اعتكاف سنة. «الزهد» لابن المبارك ١/٢٥٨.

(٢) كل ذلك كناية عن الاعتذار لأخيه وطلب الصفح عنه.

(٣) قد أخرجه الحاكم في «مستدركه» ٤/١٧٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحكى المنذري ضعفه في «الترغيب والترهيب»، وقال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٦/٢٥: ورواه عنه أيضاً ابن السني والديلمي.

والتنصل من الذنب: الخروج منه.

(٤) البيتان للبحتري، الوليد بن عبيد الطائي (٢٨٤هـ)، وله بعدهما:

خيرُ الخليلينِ منْ أغضى لصاحبِهِ ... ولو أرادَ انتصاراً منه لانتصرا

وأنشدوا:

[الخفيف]

قيلَ لي: قد أسا إليك فلانٌ ومقامُ الفتىٰ على الذلِّ عارُ

قلتُ: قدْ أتىٰ وأحدثَ عُذراً دِيَةُ الذنبِ عندنا الِاعتذارُ[1]

وأنشدوا:

[الوافر]

إذا اعتذرَ الصديقُ إليكَ يوماً فجاوزْ عن مساويهِ الكثيرهْ

فإنَّ الشافعيَ روىٰ حديثاً بإسنادٍ صحيحٍ عن المغيرهْ

عنِ المختارِ أنَّ اللهَ يمحو بعذرٍ واحدٍ ألفي كبيرهْ[2]

وروى ابن ماجه: «مَنِ اعتذرَ إليهِ أخوه بمعذرةٍ فلم يقبلْها.. كانَ عليه من الخطيئةِ مثلَ صاحبِ مَكْسٍ»[3].

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: إذا جاءكم أخوكم معتذراً..

(١) البيتان لابن المعتز، عبد الله بن محمد العباسي (٢٩٦هـ)، وقد نسبها له غير واحد، منهم أبو منصور الثعالبي في «نثر النظم»، وهي منسوبة للإمام الشافعي، وديوانه كما لا يخفى غير محقق وغير موثق.

وأسا: قصر أساء كما جاء في بعض الروايات.

(٢) الأبيات فيها من الركاكة وعدم استقامة الوزن ما لا يخفى، قال الحافظ السخاوي: وما قيل مما هو دارج على الألسنة، وأورده شيخنا في ترجمة العلاء بن موسى بن إبراهيم الرومي.. ثم ذكر الأبيات، ثم قال: فكذبٌ. «المقاصد الحسنة» (١٠٧٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه عن جودان (٣٧١٨)، والطبراني في «الكبير» عنه ٢/ ١٧٥، وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة (جودان) بعد ذكر الحديث قال ابن حبان: إن كان ابن جريج سمعه فهو حسن غريب. «الإصابة» ١/ ٢٥٦. والمكس: الضريبة الظالمة.

فاقبلوه، لا سيما إن طال به الوقوف، فإن لم يجد أحدكم في قلبه رقة لأخيه.. فليرجعْ على نفسه باللوم، وليقل لها: يأتيكِ أخوك معتذراً فلا تقبلينه؟! فكم وقعتِ أنتِ في حقه فلم تلتفتي إليه، فأنت إذاً أسوأ منه[1].

وقال بعضهم: الأخ الذي يُحْوِج أخاه أن يعتذر إليه.. ليس بأخ صادق، ولا من أهل الطريق، فإن أهل الطريق يقيمون للخلق المعاذير قبل أن يعتذروا إليهم[2].

ترك الحسد

ومن حق الأخ على الأخ: كثرة فرحه له، إذا كثرت طاعاته، وانقلب الناس إليه بالاعتقاد، ومن لم يكن كذلك.. قام به داء الحسد، وفي الحديث: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[3].

ومن وصية سيدي علي وفا: إياك أن تحسد من اصطفاه الله عليك؛ فيمسخك الله كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية، لمَّا حسد السيد آدم صلى الله عليه وسلم.

وفي مناقب سيدي أحمد البدوي[4] نفعنا الله ببركاته: أن صاحب الإيوان

---

(١) في (ب): (أسوأ حالاً منه).

(٢) يقيمون للخلق المعاذير: يلتمسون لهم الأعذار.

(٣) أخرجه بن ماجه (٤٢١٠)، عن أبي الزناد عن أنس مرفوعاً، وفيه عيسى ابن أبي عيسى وهو ضعيف، وكذا رواه أبو داود (٤٩٠٣) عن أبي هريرة، من طريق ابن أبي أسيد عن جده، وجده هذا لم يسم، وذكر البخاري إبراهيم هذا في «التاريخ الكبير»، وذكر له هذا الحديث وقال: لا يصح. «فيض القدير» ٣/ ١٢٥.

(٤) أبو العباس، أحمد بن علي الفاسي المغربي، كان كثير التلثم ولذلك سمي: البدوي، قال الشعراني: وأخباره ومجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج، وإغاثة الناس من قطاع الطريق، وحيلولته بينهم وبين من استنجد به.. لا تحويها الدفاتر. توفي رضي الله عنه بمصر (٦٧٥هـ). «الكواكب الدرية» ٢/ ٦٢ «طبقات الشعراني» ١/ ١٨٣.

بطنتثنا[1] المسمى بوجه القمر، كان ولياً عظيماً فثار عنده حسد حين جاء سيدي أحمد البدوي إلى طنتثنا، وانقلب الناس إليه بالاعتقاد، فسلب حاله، وانطُفِئ اسمه وذكره، وموضعه الآن في طنتثنا مأوى الكلاب، وانتصر له خطباء طنتثنا، فعملوا له وقتاً[2]، وبنوا لزاويته منارة عظيمة، فجاء سيدي عبد العالِ[3] ورفضها برجله فغارت لوقتنا هذا.

سفر الإخوان

ومن حق الأخ على الأخ: إذا أراد سفراً.. أن لا يخرج حتى يودعه بالعناق إن كان رجلاً، وبالإشارة إن كان صغيراً، ففي الحديث: «إذا خرجَ أحدُكم إلى سفرٍ.. فليودعْ إخوانَهُ؛ فإنَّ اللهَ جاعلٌ في دعائِهِمُ البركةَ»[4].

ومن حق الأخ على الأخ: إذا رجع من سفر.. أن يذهب إليه في منزله، ويسلم عليه ويهنئه بالسلامة، وكذلك ولده، وسائر أعزته إذا رجعوا من سفر، أو شفوا من مرض، فمن حقه أن يذهب إليه أخوه ويهنئه بالسلامة.

الشورى بين الإخوة

ومن حق الأخ على الأخ: أن يشاوره في كل أمر مهمٍّ؛ فقد ذكروا أن المشاورة تزيد في صفاء المودة، وفي الحديث: «منْ أراد أمراً فشاور فيه امرأً مسلماً.. وفقه الله لأرشد أموره»[5].

---

(١) في (ب): طنطا، وأوردها في «الطبقات» للمؤلف وهي فيه: طندتا، وطنتثنا قال عنها ياقوت في «معجمه»: كأنه مركب مضاف طَنْتَ إلى ثَنَا، من قرى مصر على النيل المفضي إلى المحلة. «معجم البلدان» ٤/ ٤٣.

(٢) خصّوا له وقتاً من مجالس الذكر ليكون عنده.

(٣) عبد العال المجذوب، خليفة الشيخ أحمد البدوي، أخذ العهد بعده وسلّك وربى، دفن في قليوب سنة (٩٣٠هـ). رضي الله عنه. «الطبقات للشعراني» ٢/ ١٨٦.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» في ترجمة مزاحم بن زفر بن علاج ٥٧/ ٣٧٢ عن زيد بن أرقم، قال المناوي في «فيض القدير» ١/ ٣٣٣: وفيه نافع بن الحارث، قال الذهبي في «الضعفاء»: قال البخاري: لا يصح حديثه.

(٥) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٢٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الحافظ
=

وكان سيدي علي الخواص يقول: عليكم بمشاورة إخوانكم في كل أمر مهم؛ فإن في الحديث: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»[١].

وأنشدوا:

[الكامل]

شاورْ أخاكَ في الخفيِّ المشكلِ ... وأقبلْ نصيحةَ فاضلٍ متفضلِ

وأنشدوا:

[البسيط]

شاورْ أخاكَ إذا نابتْكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

فالعينُ تلقى كفاحاً ما نأى ودنا ... ولا ترىٰ نفسَها إلا بمرآةِ[٢]

= المناوي: قال جدنا للأم الزين العراقي في شرح الترمذي: وهذا إسناد واهٍ. قال ابن حجر: هو ضعيف جداً، وفي شيخ عمرو وشيخ شيخه مقال. وقال الهيثمي: فيه عمرو بن الحصيل العقيلي، وهو متروك. اهـ. «فيض القدير» ٦/ ٥١.

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٦٢٣) من طريق الحسن عن أنس رضي الله عنه، قال المناوي: قال ابن حجر في «التخريج»: وعبد القدوس ضعيف جداً. وقال في «الفتح»: أخرجه الطبراني في الصغير بسند واهٍ جداً، هذه عبارته. وقال الهيثمي: رواه في «الأوسط» و«الصغير» من طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جداً. «فيض القدير» ٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣. ويكفي لإثبات شرف المشاورة أن النبي ﷺ أُمِرَ بها مع من هم دونه رضوان الله تعالى عليهم بعد أن استشارهم فلم تنفع مشورتهم في غزوة أحد.

(٢) قال المناوي عند الحديث عن الحديث السابق، قال الأرَّجَاني: وذكر هذين البيتين، وهو أحمد بن محمد بن الحسين الشيرازي الملقب بـ«ناصح الدين الأرَّجاني»، (ت ٥٤٤هـ).

ومعنى (تلقى كفاحاً): ترى ما في مواجهتها.

الرعاية وبذل الوقت والمال

ومن حق الأخ على الأخ: أن يتفقد عياله وأولاده إذا غاب عنهم.

ومن كلامهم: من لم يتفقد عيال أخيه في غيبته.. فقد خان الصحبة.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يشاطره في ماله وغيره[١].

قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: يجب على الفقير إذا آخى في الله.. أن يشاطر أخاه في ماله؛ كما فعلت الأنصار مع المهاجرين حين قدموا عليهم المدينة، وهم فقراء، فكل من ادعى الأخوة في الله.. فامتحنْه بهذه الميزان[٢].

وقال سيدي أبو مدين التلمساني[٣] نفعنا الله به: من ميّز بين ثيابه وثياب أخيه في الملك.. فما وفّى الصحبة بحق.

وقال أيضاً: لا تكتمل صحبتك إلا بانشراح صدرك لكل ما أخذه أخوك من مالك، وثيابك وطعامك، ومتى ما وجدت في قلبك انقباضاً من ذلك.. فأنت منافق في صحبتك.

وقال بعضهم: ما تصح الصحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر «يا أنا»[٤]، وليس بأخ من يقول: قصعتي أو ثوبي.

---

(١) المشاطرة: جعلُ الشيء نصفين.

(٢) وإياك أن تعاجل وتمتحن إخوانك في هذا الأمر قبل أن تمتحن نفسك لو سُئِلته، وأن تفتش عن أحوالك لِمَ تفعل هذا الأمر؟ وإلا.. فإنك ستخسر الكثيرين ممن حولك، فهذه الأخوة التي يتحدث عنها القوم عزيزة جداً، وأنت مأمور بمداراة الناس حولك. وأحوال الصحابة رضي الله عنهم فيها أكثر من أن تحصر.

(٣) شعيب المغربي، أحد أئمة الطريق المجمع على جلالتهم، ويقال له: الغوث، كان قد دخل تلمسان بطلب من أميرها ليتبرك به، وقد قال رضي الله عنه: ما لنا وللسلطان، الليلة نزور الإخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهد وقال: الله الحي، وفاضت روحه سنة (٥٨٠هـ). انظر: «طبقات الشعراني» ١/ ١٥٤، «جامع كرامات الأولياء» ٢/ ١١٧، «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٢١٩.

(٤) لهذه الكلمة صدى عند السادة الصوفية، وهي معتصرة من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه» «البخاري» (١٣).

=

الصدق في الصحبة

ومن حق الأخ على الأخ: أن لا يتكدر منه إذا قال له: أنا أبغضك، ويفتشُ على الصفات التي أبغضه لأجلها، فيزيلها، فإن زال بغضه، وإلّا.. كَرَّر التفتيش ثانياً وثالثاً.

حفظ السر

ومن حق الأخ على الأخ: أن يكتم سره؛ إذ السر كالعورة، وقد حُرِّم كشفها، والنظر إليها، والتحدث بها.

وفي الحديث: «من ستر عورة أخيه.. ستر الله عورته. ومن كشف عورة أخيه.. كشف الله عورته»[1].

وفي وصية الشيخ أبي المواهب الشاذلي: احذر أن تفشي سر أخيك إلى غيره؛ فإن الله ربما مقتك بذلك، فخسرت الدنيا والآخرة.

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا يُصَدِّقَ مَنْ نمَّ له فيه أبداً.

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي[2]: أنه يجب على كل من حملت إليه نميمة ستة أمور:

- **الأول**: ألّا يصدقه، أي النمام.
- **الثاني**: أن ينهاه عن ذلك.

= قيل: قالها السري السقطي، وقيل: هي للجنيد، وأنشدوا في معناها:

أيها السائل عن قصتنا ... إن ترانا لم تفرق بيننا

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... فإذا أبصرتني أبصرتنا

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أعجوبة زمانه، ومجدد القرن الخامس، قال الإسنوي: إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس. من أعظم مؤلفاته: «الإحياء» و«المنقذ من الضلال» وفيه أثبت طريق القوم. (ت ٥٠٥هـ) رحمه الله ورضي عنه.

«سير أعلام النبلاء» ١٩/ ٣٢٢، «طبقات الشافعية» ١/ ٢٤٩.

- **الثالث**: أن يبغضه في الله.
- **الرابع**: ألَّا يظن بالمنقول عنه السوء.
- **الخامس**: ألَّا يتجسس على تحقق ذلك.
- **السادس**: ألَّا يحكي ما نمَّ له به[١].

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: إذا نقل إليك أحد كلاماً عن صاحب لك.. فقل: يا هذا! أنا من صحبة أخي وودِّه على يقين، ومن كلامك على ظنٍّ، ولا يُترك يقينٌ بظنٍّ.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: (إذا نَقَل إليكم أحدٌ كلاماً في عِرضكم عن أحد.. فازجروه ولو كان من أعزِّ إخوانكم، وقولوا له: إن كنت تعتقد فينا هذا الأمر.. فأنت ومن نقلتَ عنه سواء، بل أنت أسوأ حالاً منه؛ لأنه لم يُسمعنا ذلك، وأنت أسمعته لنا، وإن كنت تعتقد أن هذا الأمر باطل في حقنا، وبعيد منّا أن نقع في مثله.. فما فائدة نقله لنا؟) انتهى.

وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة: أن من أراد أن يدوم له وُدُّ أصحابه.. فليردَّ كلام النمام ببادئ الرأي[٢].

ومن **حق الأخ على الأخ**: أن يذبَّ عن عرضه، لكن مع النية الصالحة، والسياسة الحسنة، وفي الحديث: «منْ ردَّ عن عرضِ أخيهِ.. ردَّ اللهُ عن وجهِهِ النارَ يومَ القيامةِ»[٣].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٣/١٥٦، وأطال الإمام الغزالي رحمه الله في تعليلها.

(٢) ذكر طرفاً من ذلك في كتابه «الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية» ٢/١٣١، وقال فيه: وما لإبليس سلاح يفسد به حال المريدين المقبلين على الله تعالى أقوى من أن يشغلهم ببعضهم بعضاً.

(٣) أخرجه أحمد ٦/٤٤٩، والترمذي في «سننه» (١٩٣١)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن.

ومن كلام الإمام الشافعي: من علامة الصادق في أخوّة أخيه.. أن يقبل علله، ويسد خلله، ويغفر زَلَله.

العون على فعل الطاعة

ومن حق الأخ على الأخ: أن يوقظه قبل الوقت ليدخل الوقتُ وهو على أهبة، فلا تفوته السنة الراتبة قبل الفريضة، ولا تكبيرة الإحرام.

وكذلك من حقه: أن يوقظه في السحر؛ إذ الشفقة في أمر الدين أولى وأفضل من الشفقة في أمر الدنيا، وينبغي أن يكون ذلك بلطف، فإن النفس ربما تحركت مع الإيقاظ بغلظة.

الفرق بين المداراة والمداهنة

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يداهنه؛ ففي الحديث: «الدين النصيحة»(١). وقال القوم(٢): الإخوان بخيرٍ ما تناقشوا، فإذا اصطلحوا..

---

(١) رواه مسلم (٥٥)، عن تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) كلمة (القوم): تطلق على العلماء الجلَّة الذين يقتدى بفعالهم، من سلف وخلف، وقد تختص بالسلف وحدهم، ثم إنها عمت في كتبهم يريدون منها أولئك الذين جمعوا بين العلم والعمل في جميع أفعالهم وأقوالهم، حتى غدوا أسوة لمن بعدهم؛ لأنهم جعلوا من شخص النبي ﷺ خير أسوة.

ومما ورد في ذلك قول أبي حنيفة رضي الله عنه: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير الفقه؛ لأنها آداب **القوم** وأخلاقهم.

وسئل أحمد بن حنبل: بم بلغ **القوم** حتى مُدحُوا؟ قال: بالصدق. وقال ابن الجوزي في حديثه عن العزلة في «صيد الخاطر»: وقد جربت على نفسي مراراً أن أحصرها في بيت العزلة، فتجتمع همتي، ويضاف إلى ذلك النظر إلى سير السلف، فأرى العزلة حِمْيَةً، والنظر في سير **القوم** دواء، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع.

وذكر الشاطبي نقلاً عن أبي القاسم القشيري مراحل تطور كلمة (التصوف) «الاعتصام» ١/ ٨٩، وشهد لأهل الطريق بشدة التمسك بالكتاب والسنة ثم ذكر كلمة نفيسة تؤكد ملازمة كلمة (القوم) لمثل هٰؤلاء فقال: وفي غرضي إن فسح الله في المدة، وأعانني بفضله، ويسّر لي الأسباب.. أن ألخِّص في طريقة **القوم** أنموذجاً =

هلكوا[1].

ومن الفرق بين المداهنة والمداراة أن المداراة: ما أردتَ به صلاح أخيك، والمداهنة: ما قصدتَ به شيئاً من الحظوظ النفسانية[2].

= يستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد، وتطرقت لها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها.. وأعظم من ذلك: أنهم يتساهلون في اتباع السنة، ويرون اختراع العبادات طريقاً للتعبد صحيحاً، وطريقة **القوم** بريئة من هذا الخباط بحمد الله تعالى.

ومن ذلك: قول الإمام أحمد حينما سئل عن الحارث المحاسبي وأصحابه فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء **القوم**، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل... انظر هذا القول وتحقيقه في «رسالة المسترشدين» (٥٥).

ومما وقفوا عليه كذلك، ورأوا فيه إشارة لطيفة قوله ﷺ في الصحيح: «هم القوم لا يشقى بهم جليس».

(١) تناقشوا: تناصحوا هنا، واصطلحوا: تركوا نصح بعضهم بعضاً، وسكتوا عن عوار بعضهم.

(٢) قال الحارث المحاسبي في «رسالته»: ومن داهنك.. فقد غشَّك، ومن لم يقبل نصيحتك.. فليس بأخٍ لك، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قومٍ لا يحبون الناصحين. «رسالة المسترشدين» (١٢٠).

ومن أجمل الفروق بين المداراة والمداهنة ما نقله الشيخ المحقق المدقق عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله عن ابن القيم في كتاب «الروح» ٢٨١ ولخصه البقاعي في «سر الروح» بقوله:

والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة: التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو تردَّه عن الباطل، والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله، وتتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

مثال ذلك: رجل به قرحة فجاءه الطبيب الرفيق، فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت بطَّها ـ شقَّها ـ برفق وسهولة، فأخرج ما فيها، ثم وضع عليها

=

اتهام النفس

ومن حق الأخ على الأخ: أن يتهم نفسه بالكبر والنفاق، إذا وجد عنده ثقلاً منه، ويسعى في إزالة ذلك من باطنه.

وقد صحب شخص أبا بكر الكتاني(١) ـ وكان على قلبه ثقيلاً ـ قال: فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله عني، فلم يَزُل، فخلوت به يوماً وقلت له: ضع رجلك على خدي فأبى، فقلت له: لا بدَّ من ذلك، ففعل، فزال ما كنت أجده في باطني(٢).

قبول النصيحة

ومن حق الأخ على الأخ: أن يقبل نصحه؛ فقد قالوا: من أرشدك إلى ما به تَخْلُص من غضب الحق تعالى.. فقد شفع فيك، فإن أطعته وقبلت نصحه.. فقد قبلت فيك شفاعته، فنفعتك، وإلَّا.. فنعوذ بالله من قوم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، حيث كانوا عن التذكرة معرضين(٣).

= من الدواء ما يمنع الفساد ويقطع المادة، ثم تابع عليها المراهم المنبتة للحم، ثم ذرَّ عليها ما ينشف الرطوبة، ثم شدَّ عليها الرباط، ولم يزل حتى صلحت.. فهذا المداري.

وأما المداهن فقال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء، فاسترها عن العيون بخرقة ثم ألْهُ عنها؛ وهذا لِمَا رأى من جزعه من بطِّها، فلم تزل مادتها تقوى وتستحكم حتى زادت موادُّها وعظم فسادها. «رسالة المسترشدين» (٢٠١).

(١) محمد بن علي بن جعفر الكتاني، بغداديٌّ، سكن مكة، كان يعرف بسراج الحرم، صحب الجنيد والخزاز والغوري، كان يقول: الشهوة زمام الشيطان، فمن أخذ بزمامه.. كان عبده. «الرسالة القشيرية» ١١٠، «طبقات الصوفية» ٣٧٣، «الحلية» ١٠/ ٣٨٢.

(٢) أخرج هذه القصة القشيري في «رسالته» ٤٨٨.

(٣) وإياك أن تردَّ نصح أخيك ولو لم يكن مصيباً في نصحه؛ فإن ذلك يحجزه عن مواصلة النصيحة، ويحملك على ردها إن ألفت ذلك. ولتعلم أنه يجب عليه نصحك عما يراه فيك، ولو كنت صاحب اجتهاد في ذلك، وعليك سماعه وتبيين ما يزيل الالتباس في حالك، ولنا في قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر عليه السلام أسوة حسنة.

إخواناً على سرر

ومن حق الأخ على الأخ: أن يعزم على أنه: إن أدخله الله الجنة.. لا يدخلها إلا إن دخل أخوه وإن طال الزمان في الحساب، وأن يسمح بمقاسمته في حسناته يوم القيامة(١).

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا يأكل ولا يشرب إذا وقع أخوه في معصية أو محنة حتى يتوب الله عليه، أو يخلصه من تلك المحنة. وقد طوى ابن أدهم حين نزل بأخٍ له بلاءٌ أربعين يوماً، ولم يزل طاوياً حتى ارتفع عنه(٢).

تعظيم الصغائر

ومن حق الأخ على الأخ: أن يرشده إلى تعظيم حرمات الله، والتباعد عن تعدي حدوده، بحيث يصير إذا وقع في أصغر الذنوب.. رأى ذلك الصغير من الكبائر بجامع المخالفة، فلا يزال كذلك حتى يرى الغفلة عن الله لحظة أشد من الزنا وقتل النفس(٣).

---

(١) هذا من الفتوة التي تقدم الحديث عنها، وتقدم أن النبي ﷺ يومَ يقول الناس: نفسي نفسي، يقول ﷺ: «أمتي أمتي».

وقد جرت العادة عندهم إن أخذوا العهد على المريد أن يوصوه بهذه الوصية، فيقول الشيخ للمريد: صرنا إخوة في الله تعالى، والناجي منّا يأخذ بيد أخيه يوم القيامة.

(٢) أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو.. تداعى له سائر ـ باقي ـ الجسد بالسهر والحمى».

فلا يقولنَّ قائل: إن هذا ليس له رصيد من الكتاب والسنة، ولكن أحوالنا اليوم، وابتعادنا عن هدي هذا الحديث الشريف.. هو الذي نأى بنا إلى استغراب أمثال هذه الآداب.

(٣) أخرج أبو نعيم في «الحلية» ١٠/٢٩٦ خبراً ذكر فيه قول الجنيد رحمه الله: لو أقبل صادق على الله ألفَ سنة، ثم أعرض عنه لحظة.. كان ما فاته أكثر مما ناله. وسيأتي قريب منه قريباً مع التعليل.

=

مطلب في تفاوت المنهيات والمأمورات

ثم إذا كمل السالك.. رجع إلى أكمل من ذلك، وهو تعظيم تعدي حدود الله على حسب ما وردت في الشرع؛ فإن العبد تابع ما هو مشرع[١]، فيعظِّم الكبيرة على الصغيرة، والصغيرة على المكروه، والمكروه على خلاف الأولى، وما بيَّن الشارع ﷺ مراتب الحدود.. إلا ليعلمنا بتفاوتها، فنعظمها بحسب مراتبها.

وكذلك القول في قسم المأمورات، فنعظم الواجب أكثر من المندوب، والمندوب أكثر من الأدب، ونندم على كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه، فرجع السالك في حال نهايته إلى صورة بدايته، والقصد مختلف من حيث تفاوت المأمورات والمنهيات في الدرجة، وكانت مساواة الأوامر والنواهي في البداية للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى، فاستعظم مأموراته ومنهياته خوفاً وسداً لباب المخالفة، بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتهما، كما ورد في الشرع، فثَمَّ مقام رفيع، ومقام أرفع.

وعلى ما تقرر يحمل قول الجنيد: (ليس عندي ذنب أعظم من الغفلة عن الله تعالى) فإن الغيبة أعظم من الغفلة، أو أنه رأى أن سبب وقوع العبد في الذنوب الغفلة عن الله تعالى.

= وقال العلامة المناوي في «فيض القدير» ١/ ٢٠٣: قال في «المناهج»: الغفلة داء عظيم، ينشأ عنه مضار دينية ودنيوية. ولله در القائل:

لـكـلِّ شـيءٍ إذا فـارقْـتـه عـوضٌ ... ولـيـسَ لله إنْ فـارقْـت مـنْ عـوضِ

والغفلة عن الله هي سبب الوقوع في الزنا وقتل النفس، وقول الإمام هذا من باب التهويل كما ذكر ابن الصلاح في «معرفة علوم الحديث» ٧٤: روينا عن الشافعي أنه قال: (لأن أزني أحبّ إليّ من أن أدلس). وهو إفراط محمول على المبالغة في الزجر والتنفير عنه كما ذكر رحمه الله.

(١) فإن العبد تابعٌ، ما هو مشرِّع. فـ(ما) هنا نافية، أو كما أثبت: فإن العبد تابعُ ما هو مشرَّع. على أنها اسم موصول.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يأمره بستر المقام، إذا تلمَّحَ منه الميلَ إلى الظهور، ومن أحب الخفاء.. فهو عبد الخفاء، وكل من خرج إلى الخلق قبل وجود الإذن الخاص له.. فهو مفتون، ومَسْخَرة للناس، وما خرج الأولياء للخلق.. إلا بعد أن هُدِّدوا بالسلب إن لم يفعلوا.

فالعاقل من ستر مقامه حتى يتولى الله إظهاره بغير مراد منه[١].

ومن حق الأخ على الأخ: أن يتظاهر بعداوة من عاداه بغير حق، أما معاداته بالباطن: فلا تجوز، حتى عدوُّ شيخِ الإنسان لا يجوز له معاداته بالباطن[٢]، بل يجب عليه مظاهرته بعداوته فقط، كما يجب عليه أن يجتنب مَنْ غضب عليه شيخُه.

القيام للقادم

ومن حق الأخ على الأخ: أن يقوم له إذا ورد عليه، ولو كره هو ذلك لا سيما في المحافل؛ فقد قالوا: إياك أن تترك القيام لأخيك في

---

(١) المقام: ما تحقق به العبد مما اكتسبه من الأخلاق والآداب، وستر المقام المأمور به هنا خوفاً عليه من العجب والرياء، والقاعدة تقول: درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، فقد يقول: إنني إن ظهرت.. نفعت الخلق، والمعنى مستفاد من قوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه حينما سأل الإمارة: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم (١٨٢٥).

وقوله ﷺ: «يا عبد الرحمٰن! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة.. وكلت إليها، وإن أعطيتها مسألةً.. أعنت عليها». وراجع مقدمة هذه الرسالة.

وكما أنه لا يجوز أن يتصدر لمداواة الأبدان كلُّ مدعٍ، فكذلك القول فيما هو أهم وأرفع مقاماً، لا يؤخذ من كل مَن ادعاه، ولذلك سنَّ أهل الحديث الإجازة، وسن أهل الطريق العهد؛ حفاظاً على هذا الدين من الدخلاء والمغرورين.

(٢) في (أ): (حتى عدُّوا شيخ الإنسان...)، أي: لا يجوز له أن يعادي شيخه بالباطن، وفي (ب): (عدو شيخ الناس...)، أي: لا يجوز للمريد أن يعادي بباطنه عدو شيخه مع كونه شيخاً له ما دامت هذه العداوة كما ذكر الشيخ بغير حق، وهذا الأخير هو المناسب لسياق الكلام ولحاقه، والله أعلم.

المحافل، فربما تولَّد من ذلك الحقدُ والضغائن، فتعجز بعد ذلك عن إزالته(١).

المنهيات

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا يحدثه بحديث كذب؛ لأن فيه استهانة به، وفي الحديث: «كبرت خيانةً أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدِّق وأنت له به كاذب»(٢).

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا ينساه من الدعاء بالعفو والمغفرة والرحمة كلما وجد وقته صافياً مع ربه، سواء كان ذلك في ليل أو نهار، أو سجودٍ أو غيره(٣).

---

(١) فقد كان النبي ﷺ يقوم لابنته فاطمة رضي الله عنها إذا رآها قد أقبلت، كما جاء هذا في «الأدب المفرد» للبخاري، وكان النبي ﷺ: إذا خرج لبيته قام له الصحابة الكرام حتى يدخل، كما هو عند البزار والبيهقي، وكانوا يتركون القيام له ﷺ لما يعلمون من كراهيته لذلك، ومعنى (يتركون) أي: أنهم يفعلون ذلك ويتركونه.

وحب القيام من قِبَل العبد محبط للأعمال، وهذا لا علاقة له بقيامك لغيرك، وقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن العربي في «الوصايا» ١٤٣: أنه قام مرَّة لأحد علماء العراق فقال له: لا تفعل، إن النهي قد ورد في ذلك، فقال له: يا فقيه! أنت المخاطب ألّا تحب ذلك، وأن يتمثل الناس بين يديك قياماً، ما أنا المخاطب بأني لا أقوم لمثلك، فتعجب من هذا الجواب واستحسنه.

وروى البيهقي في «الشعب» (٨٩٢٨) في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وخروجه إلى المسجد فقال: فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، ما قام إليّ رجل من الأنصار والمهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. وهذا ثوب للمعنى الذي قاله الإمام الشعراني رحمه الله.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٧١)، عن سفيان بن أسيد الحضرمي، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٩٣) عنه كذلك.

(٣) وهذه سنة متبعة؛ فقد قال خير الخلق ﷺ لعمر رضي الله عنه عندما استأذنه في العمرة: «لا تنسنا ـ يا أُخَي ـ من دعائك».

=

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يحقد عليه ففي الحديث: «ثلاثة من كن فيه فإن الله يغفر له ما سوى ذلك: من مات لا يشرك بالله شيئاً، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة، ولم يحقد على أخيه»[١].

وقال القوم: كل من كان عنده حقد أو مكر أو خديعة أو غش لأحد من الخلق.. فهو كذاب في طريق القوم، ولا يجوز أن يكون داعياً إلى الله تعالى.

حسن الاستماع

ومن حق الأخ على الأخ: إذا تحدث أن يشخص ببصره إليه حتى يفرغ من حديثه؛ فإن ذلك يزيد في صفاء المودة، كما أن التلاهي عن حديث الأخ، أو قَطْع كلامه قبل إتمامه يورث الجفاء.

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يمتحنه؛ فإن الامتحان من جنس كشف العورة. وقد قالوا: إياكم أن تمتحنوا إخوانكم؛ فإن الله لا يمتحن عباده إلا إن علم وفائهم؛ كيلا يخجلهم بإظهار ما كان كاسياً عندهم.

وقيل للكُبْري[٢]: ألا تمتحن أصحابك؟ فقال: إذاً نخرجَ كلنا عيوباً.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يتهيأ للقائه بالحرمة والتعظيم كلَّما فارقه، قال الشيخ محيي الدين: ولو كان زمن المفارقة يسيراً؛ إحساناً للظن بأن الله

= وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما بتُّ منذ ثلاثين سنة.. إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٤) وفي «الأوسط» (٩٢١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه ـ كما قال الهيثمي ـ ليث بن أبي سليم. وهو ضعيف كما في «التقريب»: صدوق اختلط جداً، فتُرك حديثه.

(٢) لعلها كما أثبتت، وفي (أ) و(ب) الكلمة غير واضحة تماماً، والكبري: هو نجم الدين، أحمد بن عمر بن محمد الكبري، القدوة الشيخ العالم، طاف البلاد وسمع الحديث واستوطن خوارزم، وكان لا يخاف في الله لومة لائم. (ت ٦١٨هـ) كما ذكر ذلك اليافعي. «جامع كرامات الأولياء» ٢/ ٥٠٤. وسينقل عنه الإمام بعد صفحات، والله أعلم.

نفحه نفحة، أو نظر إليه نظرة من نظراته التي في اليوم والليلة إلى قلوب عباده، فصار بها أعلى مقاماً منه[١]، ثم إن كان ذلك الأمر صحيحاً.. فقد وفّاه حقه، وإن لم يكن صحيحاً.. فقد تأدب مع الله تعالى، حيث عامله بما تقتضيه المرتبة الإلهية؛ من إكرام كلِّ واردٍ على حضرتها. قال: وهذا الأمر قلَّ من يتفقد نفسه فيه؛ لاستحكام الغفلة على القلوب.

ومن حق الأخ على الأخ: إذا رآه في ما لا ينبغي.. أن يعتقد أنه تاب من وقته، وندم في سريرته، وقد كان بعض السلف يقول: إني لأستحي من الله أن أقطع التوبة عن شخص عصى ربه بحضرتي، ثم توارى عني بجدار.

وقالوا: من قطع التوبة عن أحد من العصاة.. رأى نفسه خيراً منه ضرورةً، وكل من ظنَّ أنه خير من أحد من المسلمين فهو جاهل مخدوع ولو أُعطِيَ من المكرمات ما أُعطي.

ومن حق الأخ على الأخ: أن يحفظ وُدَّه وإن خان هو وزاغ؛ مراعاة للوُدّ.

قال ابن الخطاب[٢]: رأيت رب العزة في النوم، فقلت: يا ربِّ! علمني شيئاً آخذه عنك بلا واسطة، فقال: يا ابن الخطاب! مَنْ أحسن إلى مَنْ أساء إليه[٣].. فقد أخلص لله شكراً، ومن أساء إلى من أحسن إليه.. فقد بدَّل

(١) وقد روى أبو داود (٥٢٠٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا لقي أحدكم أخاه.. فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر، ثم لقيه.. فليسلم عليه».

(٢) هو علي بن الخطاب الجزري.

وقد أسند هذه القصة الشيخ محيي الدين ابن العربي في «الوصايا» (٢٣٩)، بشيء من الزيادة والتفصيل.

(٣) في (أ) و(ب): (عليه) بدل (إليه)، وأثبت ما في أصل القصة عند الشيخ ابن العربي رحمه الله.

نعمة الله كفراً، فقلت: يا رب حسبي[١]. فقال: حسبك، انتهى.

وهذا الأمر قد صار عزيزاً في هذا الزمان، وما بقي من أهله سوى الكلاب، كما هو مذكور في كتاب «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»[٢].

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يمنَّ عليه بما فعله معه من المعروف، إذا هو خاصمه، ونسي ذلك المعروف، فإنَّ ذِكْرَ المعروف في المخاصمة عنوانٌ على عدم الإخلاص فيه، ودليلٌ على خسة الأصل، فإن طَيِّبَ الأصل لا يمنُّ أبداً بما فعله مع أخيه من المعروف، بل يرى الفضل لذلك الأخ الذي أكل عنده مثلاً أو قَبِل منه هدية.

وفي الحديث: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المُسْبِلُ، والمنَّانُ، والمنفقُ سلعته بالحلف الكاذب»[٣].

وقال بعضهم: المنُّ بالمعروف في المخاصمة دُمَّل[٤] لا يندمل، أي: لا ينسى، بل يصير يكدِّرُ الصحبة كلما تذكَّره.

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يخاصمه؛ فإن المخاصمة تقطع الوُدّ، وقد قالوا: ما وُجِد أذهبُ للدِّين ولا أشغل للقلب من الخصومة. ومن

---

(١) وفي أصل القصة: (زدني) بدل (حسبي).

(٢) والكتاب لأبي بكر المرزبان المحولي، الأديب المؤرخ المحدث المترجم، ترجم كثيراً من كتب الفرس، (٣٠٩هـ)، وقد ذكر هذا المعنى في هذا الكتيب اللطيف ص٢٣، وذكر بعده:

احذرْ مودة ماذقٍ ... خلطَ المرارةَ بالحلاوهْ

يحصي الذنوبَ عليكَ أيا ... مَ الصداقةِ للعداوهْ

(٣) أخرجه أحمد ١٤٨/٥، ومسلم (١٠٦) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٨٧)، والترمذي (١٢١١)، وابن ماجه (٢٢٠٨)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) الدُمَّل: واحد دماميل: القروح، ويخفف.

الخصومة يتولد الغضب، والحقد، والخديعة، حتى إنه يكون في الصلاة، وخاطره معلق بالمحاجة، ولا يخفى ما في ذلك.

وفي الحديث: «كفى بك إثماً ألّا تزال مخاصماً»[١].

وأنشدوا:

[الطويل]

تجنبْ قرينَ السوءِ واصرمْ حبالَهُ فإنْ لمْ تجدْ عنه محيصاً فدارِهِ

وأحببْ قرينَ الصدقِ واتركْ مراءَهُ تنلْ منه صفوَ الوُدِّ ما لم تمارِهِ

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا يبادر إلى هجره؛ فإن المبادرة إلى مثل ذلك ليست بمحمودة، وخطؤها أكثر من صوابها[٢]، وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة شروط جواز الهجر.

ومن حق الأخ على الأخ: ألّا يؤاخذه إذا قصر في حقّه مراعاة للوُدِّ. ومن وصية سيدي علي الخواص: اترك حقك لأخيك ما استطعت، وأَقِلْ عثرة أهل المروءات والهيئات من إخوانك، وإياك أن تعتدي على من اعتدى عليك؛ فإن الحق تعالى ما أباح الاعتداء إلا بشرط المثلية، والمثلية متعذرة جداً، فربما زدت، وربما أثرت تلك السيئة في الخصم أكثر مما أثرت فيك، فالمجازاة رخصة للضعفاء[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٥/ ٥: وخرجه البيهقي والطبراني، قال ابن حجر: وسنده ضعيف. وقد ورد الترغيب في ترك المخاصمة، ففي أبي داود (٤٨٠٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه رفعه: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً» و«أبغض العباد إلى الله تعالى الألد الخصم» كما في «الصحيحين».

(٢) وفي «الصحيحين»: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

(٣) أي: المجازاة بشرط المثلية للضعفاء، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

=

ومن حق الأخ على الأخ: دوام شفقته على أولاده، والقيام بهم بعد موته. قال القوم: من لم يشفق على أولاد أخيه في غيبته، ولم يقم بهم بعد موته.. فليس بصادق في أُخوَّته.

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يقرَّه على بدعة، فإن لم يرجع عنها تركه خوفاً على نفسه أن يلحقه شؤمها، وقد كان السلف الصالح يحذرون من مجالسة أهل البدع ويقولون: من كان فيه أدنى بدعة.. فاحذروا من مجالسته، ومن تساهل في ذلك.. عاد عليه شؤمها ولو بعد حين[1].

ومن حق الأخ على الأخ: ألَّا يتزوج له زوجة طلَّقها أو مات عنها، ولو أوصاه بذلك، وقال: أنت أحق من الغير[2].

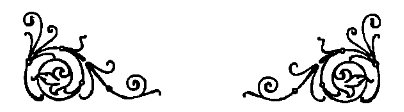
= والحال كما يقول الإمام الشعراني رحمه الله: ثم لا يخفى عليك ـ يا أخي ـ أن المريد لا يقدر على التخلق بجميع آداب إخوانه؛ لأنه مشغول بحق الله تعالى عن حقوقهم. اهـ. «الأنوار القدسية» ٢/ ١١٩.

(١) وكان عمرو بن قيس الملائي يقول: لا تجالس صاحب زيغ؛ فيزيغ قلبك. «الحلية» ٥/ ١١٩. ويروى عن مالك قريب منه. وقال يونس بن عبيد لرجل ينصحه: إياك والأمراء وإن قرؤوا القرآن وقرأت عليهم، ولا تخلون بامرأة لست منها بسبيل، ولا تمكن أذنيك من صاحب بدعة.

وكان طاووس إذا أتاه مبتدع.. سدَّ أذنيه، وقد ذُكر عن وكيع بن الجراح أنه قال: سمعت كلمة من مبتدع منذ عشرين سنة، ما أستطيع إخراجها من أذني. «رسالة المسترشدين» ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) ولعل هذا من باب الاحتياط في عدم الوقوع في الشُّبَه، وتأدباً مع الحال؛ فقد كان الأدب مع مقام النبوة ترك الزواج من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وقد سأل الشعراني شيخه الخواص: إن السلف الصالح لم يبلغنا عنهم أنهم قيدوا بهذه الشروط... فقال: صحيح ذلك ولكن ما قلناه احتياطاً لأنفسنا، والاحتياطُ لا تأباه الشريعة. انظر تمام العبارة في «لطائف المنن» ص ٣٥٣. والله أعلم.

فاعرض ـ يا أخي ـ ما في هذا الفصل على نفسك، فإن رأيتها متخلقة به.. فاشكر الله تعالى، وإلَّا.. فعليك بالاستغفار من التقصير في حقوق إخوانك، ليلاً ونهاراً، والحمد لله رب العالمين.



الفصل الثالث

في ذكر شيء من آداب القوم رضي الله تعالى عنهم

اعلم ـ وفقني الله وإياك إلى ما يحب ـ أن آداب القوم لا تنحصر؛ لأنها مجموع ما في الكتب الإلهية، والأخبار النبوية، والآثار الصحابية والسلفية، ولكن نذكر لك شيئاً من آدابهم؛ تبركاً وفتحاً للباب، فنقول وبالله التوفيق:

من آداب القوم: أن يفروا ـ في جميع الشدائد ـ إلى الله تعالى قبل جميع الخلق؛ لعلمهم على الكشف والشهود أن بيده تبارك وتعالى ملكوتَ كل شيء، بخلاف غيرهم فإنهم لا يرجعون إلى الله إلا بعد الوقوف على خلقه[١].

ومن آدابهم: جمع الحواس والقلب حال العمل؛ فقد ورد في بعض الكتب الإلـٰهية: يقول الله تعالى للملائكة الكرام الكاتبين: (اكتبوا عمل عبدي فلان، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل؛ ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضراً معه)[٢].

---

(١) في (أ) سقط طويل تُمِّم من (ب)، ولا يتم المعنى إلا به.

وقال تعالى عَزَّ من قائل: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠] وهذا هو حال العبد المؤمن، لا يرى في الكون فاعلاً على الحقيقة إلا الله؛ فهو في حال فرار دائم إليه سبحانه.

(٢) وقال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، =

ومن كلام سيدي علي الخواص: كل عمل لم يحضر العبد فيه مع ربه تعالى.. فهو كالميتة، وهو بالنفاق أشبه، وذلك لأنه يوهم الناس أنه مع الله حال مناجاته، وهو مع الخلق، وقد طالت الطريق على الناس لغفلتهم عن ذلك، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له، ولو أنهم لاحظوا المعمول له.. لاشتغلوا به عن الأعمال.

مخلصين له الدين حنفاء

ومن آدابهم: لا يطلبون بعباداتهم مقاماً أو حالاً أو تقريباً من الحضرة الإلٰهية، فقد قالوا: من خدم الله تعالى لطلب مقام.. فقد طلب قطيعته، ومن خدمه لطلب ثواب أو خوفاً من عقاب.. فقد أبدى طمعه وأظهر خسته.

وقالوا: مِن أبغضِ الخلقِ إلى الله تعالى مَنْ تملَّق إليه في الأسحار بالطاعات[1]؛ يطلب قربه تعالى بذلك.

وقالوا: افعلوا ما أمركم به الشرع إن استطعتم، ولكن من حيث مشروعيتُهُ، والأمرُ به، لا من حيث علّة أخرى، واتركوا العلل كلها في جميع أعمالكم وأحوالكم، ولا تنظروا إلى ثواب، فمن نظر إلى ثواب في أعماله عاجلاً أو آجلاً.. فقد خرج عن أوصاف العبودية التي لا ثواب لها إلا وجه الحق عز وجل[2].

= وروى مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وروى أيضاً (٢٩٨٥) عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري.. تركته وشركه».

(١) ساقط من (ب).

(٢) ولعل قائلاً يقول: كيف ذاك وقد أُمرنا بطلب الجنة والاستعاذة من النار؟ فهذا إنما يكون لا عن علة كمجرد الطمع في الجنة والخوف من النار، فالعبد إنما يعبد الله تعالى لأنه رب يستحق العبادة؛ ولهذا جاء الحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي.. =

ومن آدابهم: تفتيش أعضائهم الظاهرة والباطنة صباحاً ومساءً: هل حفظتْ حدودَ الله التي حدها لها أو تعدت؟ وهل قامت بما أُمرت به، من غضِّ البصر، وحفظ اللسان، والأُذُن والقلب، وغير ذلك على وجه الإخلاص أو لم تقم؟ فإن رأوا جارحة من جوارحهم أطاعت.. شكروا الله تعالى، ولم يروا نفوسهم أهلاً لذلك، وإن رأوها تلطخت بشيء من المعاصي.. أخذوا في الاستغفار والندم، ثم يشكرون الله تعالى، إذ لم يقدِّر عليهم أكثر من تلك المعصية، ولم يبتلِ جوارحهم التي عصت حال عصيانها، فإن كل عضو عصى استحق نزول البلاء به حال عصيانه(١).

ومن آدابهم: لا يغفلون عن تفتيش باطنهم؛ فإن الأخلاق الرديّة كامنة في العبد، ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا في المقامات كان وقوعهم في المعاصي الظاهرة معدوماً غالباً، فيقع أحدهم بذلك، وينسى تفتيش باطنه، وهو قصور عن درجة أهل العرفان، ومن ظن أن الأخلاق الردية زالت عنه.. فقد وهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] فلم يقل: ومن يزل شحَّ نفسه، بل أبقى الشحَّ فيها؛ إلا أن العبد يوافي العمل بذلك بعناية الله(٢).

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: أن الله تعالى قد جعل في طينة الآدميين سائر الأضداد في جميع الأخلاق الحميدة والذميمة، تُشَرِّقُ وتُغَرِّبُ في

= أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

والعارف يطلب الجنة لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فالجنة محل تجليات الحق عز وجل، ويعوذ من النار لقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فهم يسألون ويستعيذون كغيرهم تماماً والقصد مختلف.

(١) وكذلك يشكرونه أن تاب عليهم وألهمهم الاستغفار والتوبة، فلا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعة الله إلا بالله.

(٢) في (أ) و (ب): (ولم يزل شح نفسه، بل ألقى الشحَّ فيها...).

ذواتهم، ولكن ما دامت العناية الربانية تحفُّ العبد فجميع الأخلاق الذميمة خامدة متعطلة، فإذا تخلفت عنه العناية.. تحركت الأخلاق الذميمة للاستعمال، وخمدت أخلاقه الحسنة.

ثم لا يخفى أن طينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد طهَّرها الله من سائر الرذائل بسابق العناية[١]، فافهم وإياك والغلط.

ومن آدابهم: عدم مؤالفتهم للوعد، فلا يعدون أحداً بوعد إلا في النادر؛ لعلمهم أن صدق الوعد لا يكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، وأما غيرهم: فربما وعد وأخلف، فيصير فيه خصلة من النفاق[٢].

ومن آدابهم: إذا سئل أحدهم عن شيخه.. أن يقول: كنت خادمه، أو من المترددين إليه، ولا يقول: كنت صاحبه؛ فإن مقام الصحبة عزيز؛ إذ صاحب الإنسان هو من يشرب من بحره، كما تقدم في أول الرسالة[٣].

ومن آدابهم: إذا ذُكِر أحد من أصحابهم في غيبته بحضرتهم.. لا يقولون: هو من أصحابنا، أو من أكابر أصحابنا إلا إن كان دونهم بدرجات، فإن كان مساوياً لهم أو فوقهم.. فيقولون: نحن من أتباعه أو خدّامه[٤].

---

(١) ونزع حظَّ الشيطان منها، فالنبي لا يتصور منه الخلق الذميم بحال من الأحوال، لأنه أسوة وقدوة، ولا يؤمر بالاقتداء إلا بالكامل.

(٢) للحديث المشهور والمتفق عليه: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث.. كذب، وإذا وعد.. أخلف، وإذا اؤتمن.. خان»، وفي رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

(٣) راجع ذلك في مقدمة الرسالة.

(٤) وغالب من يقول: هو من أصحابنا، إنما يريد بذلك التقليل من شأنه، ولفت النظر إليه، نسأل الله العفو والعافية، وأما قوله: نحن من أتباعه وخدامه: فهذا هو حال الشعراني رحمه الله، فأفضلُ الدين الذي ينقل أقواله وأحواله، كان أخاً له في الطريق، فإن ذكره رحمه الله وهو صاحبه.. قال: يقول سيدي أفضلُ الدين.

ومن آدابهم: لا يقولون: ذهب الأكابر والصادقون؛ فإنهم ما ذهبوا حقيقة، وإنما هم ككنز صاحب الجدار(١).

وقد يعطي الله من جاء في آخر الزمان ما حجبه عن أهل العصر الأول؛ فإن الله قد أعطى نبيَّنا ﷺ ما لم يعطه الأنبياء قبله، ثم قدّمه عليهم في المدح.

ومن كلام صاحب «الحكم»(٢): بدل ما تقول: أين الأولياء؟ أين الصالحون؟ قل: أين البصيرة؟ هل يصلح للمتلطخ بالعذرة أن يرى بنت السلطان. انتهى(٣).

ومثل هذا اللفظ لا يقع إلا ممن لم يكن عنده اعتقاد في أولياء عصره وعلمائه، ولا يخفى ما في ذلك(٤).

---

(١) وهذا الكنز لم يعلم بوجوده إلا الخضر عليه السلام؛ فانطلق يخفيه عن أعين الناس حتى يأذن الله تعالى بإخراجه. وقال في أمثالهم الحارث المحاسبي في «رسالته» ١٦٢: ولمثل هؤلاء فاصحبْ، ولآثارهم فاتبع، وبأخلاقهم فتأدب، فهؤلاء الكنز المأمون، بائعهم بالدنيا مغبون. اهـ

فهم موجودون، والخير ـ كما يقول ﷺ ـ في الأمة إلى يوم القيامة، ومن قال: إن الناس هلكى.. فهو أولهم هلكة، والمحروم من حرم بركة أهل زمانه.

(٢) أبو الفضل، تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري، المالكي مذهباً، الشاذلي طريقة، يقول الشيخ أحمد زروق في شرحه «للحكم»: كان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره.

لازم الشيخ أبا العباس المرسي صاحب أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما، وقال له: الزمْ؛ فوالله لئن لزمت.. لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد: الشريعة والحقيقة. و«حكمه» من أعظم ما أُلّف في التوحيد، وله: «التنوير»، و«القول المجرد في الاسم المفرد»، و«تاج العروس»، وهو رسالة عظيمة النفع على لطف في حجمها. توفي سنة (٧٠٩هـ). «شذرات الذهب» ٦/ ١٩، «طبقات الشعراني» ٢/ ٢٠.

(٣) «تاج العروس الحاوي على تهذيب النفوس» ٥٨.

(٤) قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

ومن آدابهم: لا يطلبون ألَّا يكون لهم حاسد؛ فإن الحكم الوجودي اقتضى مقابلة النعم بالحسد، فمن طلب ألَّا يكون له حاسد. . فقد طلب أن لا تكون له نعمة[١].

ومن آدابهم: إذا ذكروا ذنوبهم. . لا يقولون عليها: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ لما في ذلك من رائحة الحجة على الله تعالى، بل يقولون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ومع الإفراد[٢]: رب ظلمت نفسي فاغفر لي؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

ومن آدابهم: لا يقولون: نأنس بالله تعالى؛ فإن الإنسان لا يأنس إلا بجنسه، والحق تعالى ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجهٍ من الوجوه، فإن رأيت في كلام أحد من القوم أن العبد يأنس بالله تعالى. . فاعلم أنه غير محقِّق، ولو حقق. . لوجد أُنسه بما مِن الله تعالى، لا بالله تعالى؛ لانتفاء المجانسة.

وكذلك كان الجن لا يأنس أحدنا بهم، بل تقوم كل شعرة من الإنسي إذا رأى الجني.

= ومن هذه الآية لزمت المشيخة كما قال الشيخ العلامة أحمد زروق في «قواعد التصوف»، والله سبحانه جعل أهل العلم طريقاً إليه: يقول ابن عطاء رحمه الله في «حكمه»: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

(١) وأصل المعنى من قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام١١٢].

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما:

محسَّدونَ وشرُّ الناسِ منزلةً مَنْ عاشَ يوماً سليماً غيرَ محسودِ

وانظر بحثاً لطيفاً للإمام الشعراني رحمه الله في حسد القوم من قِبَل غيرهم في مقدمته لكتابه «الطبقات»، وانظر «العود الهندي» ٢/ ٣١٥ ـ ٣١٩.

(٢) وهذا ما أدّب به الله نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء ٧٩] وفي غير (ج): (ومع الأوراد).

وكما لا يصح الأنس بالله تعالى كذلك لا يصح الالتذاذ به تعالى. قال القوم: وهذا الحكم لنا في الدارين، فإن الشارع ﷺ لم يفصح لنا عن سبب اللذة إذا وقعت لنا الرؤية، بل قال: فما أعطوا لذَّةً مثل لذة نظرهم إلى ربهم، وهذه اللذة لا نتعقلها الآن(١).

ومن آدابهم: لا يقولون: نطلب الله؛ إذ الطلب لا يكون إلا لمفقود، والله تعالى موجود ولا يطلب دركه؛ لأنه لا غاية له، وإنما نطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى.

ومن آدابهم: لا يستعيذون بالله من شيء، وإنما يستعيذون من شره، وكذلك لا يقولون: اللهم أغننا عن جميع خلقك، وإنما يقولون: أغننا عن أشرار خلقك(٢).

---

(١) في غير (ج): (بل مثل لذة نظرهم...)، وللإمام رحمه الله نظر طيب في هذه المسألة، وقد تكلم عنها في كتابه «كشف الحجاب والران» ص ٤٨، وبشيء من الإفاضة في أمثال هذه الأقوال التي يقع بها الخاصة قبل العامة، ويكثر سماعها اليوم من أهل العلم والفضل في كتابه «لطائف المنن والأخلاق» ص٣٨٥ ومن أمثال ما ذكر الشيخ هنا قولهم: يا من يرانا ولا نراه، يا دليل الحائرين، يا دليل من ليس له دليل، يا من لا يوصف ولا يعرف، يا ساقي، يا خمار...

غير أن هذه الجملة (الأنس بالله) لم يذكرها، ولو تتبعنا كلامهم رضي الله عنهم.. لوجدناها سارية فيه، وتكلم بها أشياخ هم قمة أهل التحقيق كما نص على ذلك الإمام الشعراني نفسه، فعندما ترجم الشيخ أحمد الرفاعي ذكر له قوله: الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش مِنْ كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله تعالى به. «الطبقات» ص١٤١. والأقوال في (الأنس بالله) كثيرة، وهي على تقدير حذف مضاف يناسب المقام، والله أعلم.

ويقول ابن عطاء رحمه الله في «حكمه»: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا.. فجلَّ ربنا أن يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء.

(٢) والله سبحانه وتعالى يُجري الخير على الناس بالناس، فأدب السؤال بالإغناء عن أشرار الخلق فيه بُعْد نظر منه رحمه الله.

ومن آدابهم: عدم زخرفتهم الكتب التي يرسلونها إلى إخوانهم؛ خوفاً من الكذب[١].

ومن وصية أبي نصر بشرٍ الحافي: إذا كتب أحدكم كتاباً إلى أحد.. فلا يزخرفه بحسن الألفاظ، فإني كتبت مرة كتاباً، فعرض لي كلام إن كتبته.. حَسُنَ الكتاب وكان كذباً، وإن تركته.. سَمُجَ الكتاب وكان صدقاً، فعزمت على ذكر الكلام السمج الصدق، فنادى هاتف من جانب البيت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن آدابهم: كثرة استغفارهم إذا اعتقدوا فيهم الخلق[٢]، وهم في السر على خلاف ذلك.

وفي الحديث: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»[٣].

وقد حثُّوا على الاعتناء بالاستغفار ليلاً ونهاراً، سواء تذكر العبد ذنوباً معينة، أو لم يتذكر.

ومن آدابهم: إذا مدحوا أن يكثروا من الشكر والاستغفار، وأن يقولوا: اللهم أنت أعلم بنا منهم، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون[٤].

ومن آدابهم: لا يعتمدون على كسبهم؛ فإن الاعتماد على الكسب شرك

---

(١) أي: لا يذكرون كلاماً ظاهره شدة الحب والشوق وغير ذلك والأمر على خلاف الحال.

(٢) كذا في النسخ على لغة: يتعاقبون فيكم ملائكة، والسياق العام: إذا اعتقد فيهم الخلق.

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٥)، وابن ماجه (٣٨١٣)، عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

(٤) أخرج البيهقي في «الشعب» (٤٨٧٦) عن بعض السلف أنه كان يقول في الرجل يمدح في وجهه: التوبة منه أن يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيراً مما يظنون.

بالله عز وجل، وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة[1] معرفة طريق الخلاص من هذا الشرك، وأن من خَلُص منه فهو المؤمن الذي يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب.

ومن آدابهم: عدم نسبة شيء من الأعمال الصالحة إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط.

قال القوم: كل عمل اتصل بالعبد شهوده.. فهو غير متقبل، فمن شهد له عملاً.. فعمله عند نفسه، لا عند ربه، ومن حقَّق النظر.. علم أنه لا أثر لمخلوق في فعل شيء من حيث التكوين، وإنما له الحكم فيه فقط[2]، وغالب الناس لا يفرق بين الحكم والأثر.

ومن كلام سيدي علي الخواص: ما دام العبد ينسب الأمور لنفسه ذوقاً وإلى الله علماً.. فهو محجوب ،فإذا رفع الحجاب.. رأى أفعاله كلها خلقاً لله تعالى ذوقاً دون نفسه، فلا يكمل حال المريد حتى يشهد أفعاله كلها خلقاً لله تعالى ذوقاً، وأما علمه أنها خلق الله: فلا يكفيه؛ إذ ليس العلم كالذوق[3].

قال: وأكثر المريدين لم يثبت لهم قدم في توحيد أفعالهم لله تعالى، وكذلك يطلبون الجزاء من الله تعالى على ما أجرى على أيديهم من الأعمال

---

(١) ذكر طريق معرفة الخلاص من شرك الكسب والاعتماد عليه في «لطائف المنن» ٧٢، فانظره.

(٢) أي: إنما له الكسب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر٣٨] وأما أثر الفعل: فهو من خلق الله سبحانه وتعالى، والعبد مَجْلَى هذا الأثر.

(٣) أن تعتقد: أنه لا فعّال إلا الله، وأنه سبحانه له مقاليد السماوات والأرض.. فرض حتمي يجب على كل مكلف، فهذا يسمى علماً، فإن أنت ترقيت فصرت لا تشهد سواه مشاهدة يعرفها من ذاقها.. سُمي ذلك ذوقاً. وانظر كلاماً طيباً للإمام في «لطائف المنن» ٥٣، ٤٦٦.

الصالحة[١]، وكذلك يطلبون الجزاء من الخلق إذا أجرى الله على يدِهِم إحساناً لهم، فلولا نسبتهم ذلك إلى أنفسهم.. ما طلبوا الجزاء من الله تعالى، ولا من الخلق، وما قال عارف قط: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلا على وجه التلاوة فقط، لا على وجه كونه له شركة في الفعل، تعالى فعل الله عن الشرك، فافهم.

ومن آدابهم: التجرد عن العزة والغنى، والتحقق بالذل والفقر، إذا توجهوا إلى الله في أمر دنيوي أو أخروي؛ كيلا يمنعوا عن الإجابة.

ومن كلامهم: إذا توجهت إلى الله.. فتوجَّه إليه وأنت فقير ذليل، فإن غناك وعزتك ـ وإن كانا بالله تعالى ـ يمنعانك الإجابة؛ لأن الغنى والعز صفتان لا يصح لعبدٍ الدخول بهما على الله تعالى أبداً؛ لأن حضرته تعالى لها العزة ذاتية، فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً[٢].

ومن آدابهم: لا يسألون الله شيئاً من أمور الدارين إلا مع التفويض وردّ العلم إليه سبحانه؛ عملاً بعموم قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فيقول أحدهم في سؤاله: اللهم أعطني كذا وكذا إن كان فيه خير لي، واصرف عني كذا وكذا إن كان فيه شر لي[٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات ١٧].

(٢) قال ﷺ فيما يحكي عن الله جل وعلا: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما.. قذفته في النار...» كما في «صحيح ابن حبان».

ويقول ابن عطاء رحمه الله في «حكمه»: تحققْ بأوصافك يمدّك بأوصافه، تحققْ بذلّك يمدّك بعزه، تحقق بعجزك يمدّك بقدرته، تحقَّقْ بضعفك يمدّك بحوله وقوته.

(٣) حديث الاستخارة خير شاهد على هذا.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي[١]: احذر أن تسأل الله شيئاً إلا مع التفويض، وأما إذا أعطاك تعالى شيئاً من غير سؤال.. فذلك مبارك، وعاقبته حميدة، وليس عليك فيه حساب إن شاء الله تعالى؛ لكونه جاء من غير استشراف نفس[٢].

ومن آدابهم: عدم الاشتغال بالنعمة عن المنعم؛ إذ يقبح بالعبد أن يألف النعمة دون المنعم أو يميل إليها، فإن الميل إلى كل شيء دون الله مذموم، إلا في حقوق الله ومأموراته.

وفي وصية سيدي عبد القادر الجيلي: إياك أن تشتغل بما أعطاك الحق سبحانه من المال فيحجبك بذلك عنه، دنيا وأخرى، وربما سلبك ذلك المال عقوبة لك، وإذا اشتغلت بطاعته عن ذلك المال.. كان من المال المحمود لا المذموم.

ومن آدابهم: محبة العزلة في البداية دون النهاية؛ وذلك لأن المبتدي لضعفه أدنى شيء يشغله عن الله تعالى، ولا هكذا المنتهي؛ لأنه من حين عرف الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم.. صار لا يشغله عن الله شاغل، ولا تخلو الخلق عنده من حالين: إما أن يكون أحدهم أعوجَ فيجب عليه

---

(١) أبو صالح الجيلاني، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، صاحب أعظم حركة إصلاحية في القرن السادس الهجري، نَهَج نَهْج الغزالي، فبنى الربط والزوايا وسلك وربَّى، واشتهر أمره وعظم وهو أشد ما يكون إعراضاً عن الدنيا، ذكر الشعراني: أنهم كانوا يقرؤون عليه التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو، ويقرئ القراءات، ويفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، وترجم له الذهبي في «سيره» ترجمة رائقة. «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٤٤، «الطبقات للشعراني» ١/ ١٢٦، «جامع كرامات الأولياء» ٢/ ٢٠٠.

(٢) وما جاء بغير استشراف نفس.. بورك فيه، ومن أخذه بإشراف نفس.. لم يبارك له فيه، كما جاء ذلك في حديث حكيم بن حزام المشهور، والمتفق عليه.

القرب منه حتى يقوِّم عوجه، وإما مستقيماً فيستفيد منه العلم والأدب[١].

وإنما لم نقل: لا تخلو الخلق عنده من ثلاثة أحوال، ونعد منها المساوي له من الأقران؛ لقولهم: ليس في الوجود شيئان متساويان من كل الوجوه، فما بقي إلا الزائد أو الناقص، وكذلك القول في الجوع المفرط أوائل دخولهم الطريق مع وجودهم الطعام؛ مجاهدة لنفوسهم، أما حال كمالهم: فلا يجوعون إلا إذا فقدوا الطعام؛ لأنهم مطالبون بإعطاء كل ذي حقٍّ حقه من جوارحهم، ويؤاخذون بظلمهم لنفوسهم في مرضات الله بعد الكمال، عكس ما كانوا عليه في بداية أمرهم.

ومن هنا قيل: جوع الأكابر اضطرار لا اختيار[٢]، بخلافهم في بدايتهم، فإنهم يجوعون اختياراً مع وجود الطعام؛ تعذيباً لنفوسهم لتنقاد لهم إذا دعوها لمرضاة الله تعالى؛ لأنها قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون[٣].

ومن آدابهم: لزوم الرحمة للمسلمين، وفي الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى»[٤].

ومن كلام سيدي علي الخواص: عليك بالرحمة للمسلمين إن أردت أن تُرْحَم، ومن الرحمة لهم أن تحمل همومهم. قال: واعلم أنَّ حملنا لهموم إخواننا المسلمين لا ينافي التسليم كما توهمه بعضهم؛ فالعبد يحمل همَّ

---

(١) انظر ص ٤٧ من هذه الرسالة والحديث عن العزلة والخلطة.

(٢) أي تدريب وتعليم وتهذيب.

(٣) الحرون: التي أبت على صاحبها وامتنعت، وحكى النبهاني في «جامع كرامات الأولياء» عند ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني: جاءت امرأة إلى الشيخ ترى ولدها، فوجدته يأكل خبز الشعير، ورأت الشيخ يأكل الدجاج، فقالت: يا سيدي! تأكل الدجاج ويأكل ولدي الشعير؟! فوضع يده على العظام وقال: قومي بإذن الله.. فقامت، فقال: إذا صار ابنك إلى هذا.. فليأكل ما يشاء.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٠، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

إخوانه من حيث كسبهم للذنوب التي استحقوا بها البلاء النازل عليهم، ويسلِّمُ من حيث التقدير الإلٰهي الذي سبق به العلم، إذ لا يمكن رد مثل ذلك، فافهم؛ فإنه قد غلط في ذلك جماعة من مشايخ الجهل زاعمين أنهم مسلِّمون لله تعالى، ويخرجون[1] على من يرونه يحمل همَّ إخوانه، ويقولون: ما لفلان ومعارضةَ الأقدار، ويتوهمون أنَّ ما هم عليه أكمل، وهو جهل؛ ففي الحديث: «من لم يحمِلْ همَّ المسلمين.. فليس منهم» وفي لفظ: «من لم يهتم بأمر المسلمين.. فليس منهم»[2].

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذا نزل بالمسلمين بلاء.. لا يضحك قط، وكذلك عمر بن عبد العزيز[3]، وسفيان الثوري[4]، وعطاء السلمي[5]، حتى يرتفع ذلك البلاء.

قال: ومن مقام القطب: أن يتحمل من البلاء ما لا تطيقه الجبال، فكل بلاء أهل الأرض ينزل عليه أولاً، ثم ينتقل منه إلى الإمامين، ثم إلى

(١) أي: ينكرون.

(٢) أخرجه في «الحلية» ٣/ ٥٦، عن أنس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٤٨: رواه الطبراني عن أبي ذر، وفيه يزيد بن ربيعة، وهو متروك، وقال السخاوي في «المقاصد» (١١٨٢): وبسطت الكلام عليه في «الأجوبة الدمياطية».

(٣) خامس الخلفاء الراشدين، والمجتهد العالم الرباني العظيم، عندما تولى الخلافة صار من أشد الناس خوفاً، حتى قالت زوجه فاطمة: إن مرض موته كان بسبب خوفه من ربه. توفي سنة (١٠١هـ). «طبقات الشعراني» ١/ ٣٣.

(٤) أمير المؤمنين في الحديث، وأحد أكابر المجتهدين وأفراد العبّاد الزاهدين، توفي سنة (١٦١هـ)، «الحلية» ٦/ ٣٩٣.

(٥) كان رضي الله عنه شديد الخوف من الله تعالى.

وقد ذكر الإمام الشعراني أنه كان يقول إذا نزل بلاء بالمسلمين: هذا كله من أجل عطاء، ولو مات.. استراح الناس منه، رضي الله عنه. توفي سنة (١٣٢هـ).

«حلية الأولياء» ٦/ ٢٣٣، «طبقات الشعراني» ١/ ٤٧.

الأبدال، فلا يزال ينتقل حتى يعم أصحاب الدوائر والمقامات[(١)]، فإذا فاض بعد ذلك شيء.. وزّعَ على عامة المسلمين، فربما وجد أحد ضيقاً وقبضاً حتى يكاد يهلك، ولا يعرف سبب ذلك؛ فهذا سببه.

ومن هنا قالوا: الرحمة خاصة والبلاء عام، وذلك من جملة رحمة الله تعالى بالعصاة، فإنه لو نزل بهم بلاؤهم كله الذي استحقوه بالمعصية.. لمحق الله أثرهم، وإنما يوزع على الناس، فيصيب كل واحد قدراً يسيراً لا يكاد يحس به.

ومن آدابهم: تحويط المسلمين في المساء والصباح بما ورد من الآيات والأخبار، وتحويط زرعهم من الدودة، وجسورِهم من العصاة، وبحر النيل حتى تتم زيادته في العادة، والفاكهة إذا حصل حر أو برد شديد يرمي الزهرَ[(٢)].

ومن آدابهم: عدم شكواهم إلى الخلق ما يصيبهم [من] بلاء ومحنة وغير ذلك.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي: احذر أن تشكو ربك وأنت معافى في بدنك، أو لك قدرة على تحمّل ذلك البلاء بالقدرة التي قوّاك تعالى بها، فتقول: ليس عندي قوة ولا قدرة، أو تشكوه إلى خلقه وعندك نعمة ما، أنعم بها عليك، وتقصد بتلك الشكوى الزيادة من خلقه، وأنت متنعم عما له عندك من العافية والنعم، فاحذر من الشكوى لمخلوق جهدَك، ولو تقطّع لحمك، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم البلاء من جهة شكواه، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والدته الشفيقة[(٣)]؟!

---

(١) تقدم الحديث: أن القطب والإمامين والأبدال وأصحاب الدوائر والمقامات مصطلحات صوفية لنخبة مِنْ خلق الله سبحانه وتعالى.

(٢) ومعنى التحويط: قراءة الآيات والأدعية التي فيها تحصين ذلك، ومعنى (حتى تتم زيادته في العادة): وصول الماء إلى المستوى المطلوب لسقي الزروع.

(٣) فقد جاء في «الصحيحين»: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟

ومن آدابهم: كثرة شكرهم على النعمة امتثالاً للأمر لا طلباً للزيادة.

ومن كلامهم: عليك بشكر النعمة؛ فإنَّ مَنْ لم يشكر النعمة.. فقد تعرض لزوالها، واحذر أن يكون شكرك لأجلك، بل اجعل شكرك امتثالاً لأمر ربك بالشكر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: ١٤] فافهم.

ومن آدابهم: شدة سترهم لمقامهم، فقد قالوا: الكامل من يهضم نفسه حتى يزكِّيه ربه.

وقالوا: أحسن بذر الحرَّاث ما بَذَره ثم ستره بعد ما بذره، حتى نبت في بطن الأرض، وأقبحه ما نبت فوقها؛ لأنه لا ثبات له[1].

وقالوا: على صاحب الحق ألَّا يهتم بإظهار شأنه اهتماماً يحمله على الاستعانة بالخلق، فإنه إن كان على نور حق فهو يظهر بالله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] وإن كان على ظلمة باطل، وتسبب في إظهار شأنه وإشاعته فإنه لا يتمتع بذلك ـ إنْ مُتِّع به ـ إلا قليلاً ثم: ﴿ٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

ومن آدابهم: ترك التدبير، وهو على قسمين: تدبير محمود، وتدبير مذموم.

فالمحمود: ما كان فيما يقربك إلى الله تعالى، كالتدبير في براءة الذمم

= قلنا: لا والله وهي تقدر على ألَّا تطرح، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

(١) يقول ابن عطاء رحمه الله في «حكمه»: ادفنْ نفسك في أرض الخمول؛ فما نبت مما لم يدفن.. لا يتم نتاجه.

من حقوق العباد، إما وفاءً، وإما استحلالاً، وفي تصحيح التوبة، وفيما يؤدي إلى قمع الهوى والشيطان.

والتدبير المذموم: تدبير الدنيا للدنيا، وهو أن يدبِّر في أسباب جمعها افتخاراً بها واستكثاراً، وكلما ازداد منها شيئاً.. ازداد غفلة واغتراراً، وأمارة ذلك: أن تشغله عن الموافقة[١]، وتؤديه إلى المخالفة[٢].

أما تدبير الدنيا للآخرة: فلا بأس به، كمن يدبِّر المتاجر؛ ليأكل منها حلالاً طيباً ويُنْعِم منها على ذوي الفاقة اتصالاً، ويصون بها وجهه عن السؤال إجمالاً، وأمارات ذلك: عدم الاستكثار والادخار، والإسعاف منها والإيثار.

ومن آدابهم: ترك الاختيار مع الله تعالى، فقد ذكروا أن بني إسرائيل لما جعلوا لهم مع الله اختياراً.. ضربت عليهم الذِّلة والمسكنة.

وقالوا: إياك والفرار من حالٍ أقامك الله فيها؛ فإن الخير فيما اختاره الله لك، وتأمل السيد عيسى عليه الصلاة والسلام لما فرّ من بني إسرائيل حين عظَّموه كيف عُبِدَ من دون الله تعالى فوقع في حالٍ أشد مما فرَّ منه.

وقالوا: أصل اختيار العبد إنما هو لظن العبد أنه مخلوق لنفسه، والحق تعالى ما خلق العبد إلا له سبحانه، فلا يعطي عبده إلا ما يصح[٣] أن يكون له تعالى.

وقالوا: لا تركن إلى شيء، ولا تأمن مكر الله لشيء، ولا لغير شيء،

(١) أي موافقة الأوامر الإلهية فيؤديها في أوقاتها ويشتغل بما دبَّر لدنياه عنها.

(٢) والتدبير: هو ضمان النتائج والعواقب، فالمحمود: تسعى به لأمر الله سبحانه وتعالى، أما المذموم: فهو شرك خفي لاعتماد المرء فيه على الأسباب واعتقاد فاعليتها، بينما العبد المؤمن يتعامل معها كيلا يعطل الحكمة. قال ابن عطاء رحمه الله: أرح نفسك من التدبير؛ فما قام به غيرك عنك.. لا تقم به لنفسك.

(٣) في (أ) و (ج): (يصلح).

ولا تختر شيئاً؛ فإنك لا تدري أتصل إلى ما اخترته أم لا؟ ثم إن وصلت إليه فلا تدري ألك فيه خير أم لا؟ وإن لم تصل إليه.. فاشكر الذي منعك؛ فإنه لم يمنعك عن بخل، وإذا خيَّرك الله تعالى في أمر.. فاختر عدم الاختيار، ولا تقف مع شيء، ولا تحزن على شيء خرج عنك؛ فإنه لو كان لك.. ما خرج عنك، ولا تفرح بما يحصل لك من أمور الدارين سوى الله تعالى[١]؛ فإنَّ ما سواه تعالى عدم.

وقالوا: لا تختر جلب نعماء، ولا دفع بلوى؛ فإن النعماء واصلة إليك بالقسمة، استجلبتها أو دفعتها، والبلوى حالَّة بك ولو دفعتها أو كرهتها، فسلِّمْ لله في الكل يفعلُ ما يشاء، فإن جاءتك النعماء.. فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى.. فالزم الصبر والموافقة، أو الرضا[٢]، والتنعم بها على قدر ما تُعْطَىٰ من الحالات، حتى تصل إلى الرفيق الأعلى، وتقام في مقام مَنْ تقدم من الصدِّيقين.

ومن آدابهم: أن يرضوا بالدون من كل شيء تحبه النفس من شهوات الدنيا، وأن يثبتوا إذا ضيّق الله عليهم في المعيشة، ثم لا يخفى أن من رضي بالدون من كل شيء تحبه النفس من شهوات الدنيا، لم يقع بينه وبين أحد منازعة ولا خصومة[٣]، واستراح قلبه ودمه من التعب في تحصيل الزائد عن الحاجة، فإن رزق كسرة من الشعير.. قنع بها، وشكر الله عليها، وإن رزق حبة.. قنع بها، وشكر الله عليها، ثم بعد ذلك إن جاءه أمر زائد.. أكثر من الشكر عليه باللسان والبذل[٤].

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(٢) في (ب): (والرضا) بدل (أو الرضا).

(٣) للحديث الذي قد مرّ: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

(٤) وهذا المعنى لم يثبت بالسنة فحسب، بل كان النبي ﷺ ـ فضلاً عن الرضا بالدون =

ومن آدابهم: لا يضيفون[١] إليهم شيئاً إلا مع الحضور أن ذلك من نعم الله عليهم دون أن يضيفوا ذلك إليهم مع الغفلة وادعاء الملك.

ومن آدابهم: لا يقولون لمن قصدهم في حاجة: ارجع وتعال إلينا وقتاً آخر، ولا يمنعون سائلاً إلا لحكمة، لا لشحٍ وبخل.

ومن آدابهم: كل موضع عظَّمهم الناس فيه وخافوا منه الفتنة.. لا يألفونه[٢].

ومن آدابهم: قلة التحدث على الأكل[٣]؛ لأنهم جالسون حقيقة على مائدة الله، والله ناظر إليهم وإلى آدابهم وإيثارهم لبعضهم بعضاً، وشكرهم له عز وجل.

وكذلك من آدابهم: لا يأكلون من وسط الإناء؛ عملاً بخبر: «إن البركة لتبرز في وسط الإناء فكلوا من حافّاته، ولا تأكلوا من وسطه»[٤].

ومن آدابهم: إجابة أخيهم التقي إذا دعاهم إلى طعامه.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إذا دعاك أخوك المؤمن التقي إلى

= في العيش ـ يسأل الله عز وجل الكفاف، فكما جاء في «الصحيحين» دعاؤه ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا قوتاً»، وفي رواية: «كفافاً» والكفاف في اللغة: ما يكون بقدر الحاجة، وعليه تحمل الأحاديث في طلب الغنى، فهو على ما يدفع الفاقة، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٢/ ١٠١: وفي دعاء المصطفى ﷺ إرشاد لأمته كل الإرشاد إلى أن الزيادة على الكفاف بكثير لا ينبغي أن يتعب العاقل في طلبه؛ لكونه لا خير فيه.

(١) أي: لا يدَّعون ملكية شيء لأنفسهم حال غفلتهم.

(٢) أي: لا يرجعون إليه مرة أخرى خوفاً على أنفسهم.

(٣) قوله رحمه الله: (قلة التحدث) تفيد عدم ترك التحدث مطلقاً، فتركه مطلقاً مكروه؛ لما فيه من التشبه بغير المسلمين، وهو حاصل بكلام بين اثنين على الأقل.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٠، والحميدي (٥٢٩)، والترمذي (١٨٠٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٣٧٧٢)، والنسائي (تحفة الأشراف ٥٥٦٦)، وابن ماجه (٣٢٧٧)، بألفاظ متقاربة.

طعامه.. فأجبه تسره، ولا تُجِبْ ظالماً ولا فاجراً، ولا من يعامل بالربا، ولا من يخصُّ الأغنياء بدعوته دون الفقراء، وإذا أكلت.. فلا تتحول حتى ترتفع المائدة؛ فإن ذلك من سنة السلف الصالح، وإذا غسلت يدك.. فادعُ بالبركة، واستأذن في الخروج.

ومن آدابهم: لا يأكلون وحدهم؛ لما ورد أن شرَّ الناس من أكل وحده.

وفي وصية سيدي علي الخواص: لا تأكل وحدك، ولا في ظلمة، ولا تضيع من الطعام شيئاً؛ فإنه ما قدِّم إليك إلا لتأكله، لا لترميه في الأرض، وبادر إلى ما سقط فكلْه؛ فإنه ورد في الخبر: «أن من أكل ما سقط.. صرف الله عنه الجنون والجذام والبرص، وعن ولده وولد ولده إلى رابع أهل بيته»[1].

وليس من آدابهم: صرف وجوههم عن الحاضرين عند الشرب.

وقال الشيخ نجم الدين الكبري[2]: إذا شرب أحدكم.. فليشرب ووجهه إلى القوم، ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعله العوام بقصد الاحترام، وإذا فرغ أحدكم من غسل يده.. فليدعُ لمن يصبّ عليه بنحو: طهَّرك الله من الذنوب[3].

---

(١) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد» (١٠٧٢):

أخرجه: أبو الشيخ في «الثواب» عن جابر به مرفوعاً، وعن الحجاج بن علاط مرفوعاً أيضاً، والديلمي والخطيب ثم قال: وكلها مناكير، نعم ثبت في مسلم (٢٠٣) عن جابر وأنس مرفوعاً: «إذا وقعت لقمة أحدكم.. فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بمنديل حتى يلعق أصابعه؛ فإنه لا يدري في أي طعامه البركة». وكذا عند أحمد ٣/ ٢٩٠، وانظر «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٦٢.

(٢) في (أ): (الكردي)، والصحيح كما أثبت من (ب)، وهو كذلك في «لواقح الأنوار القدسية في قواعد الصوفية» للمؤلف، عند ذكره لهذا القول.

(٣) وهذا من شدة خوفهم من الوقوع في البدع، فلم يرد عن النبي ﷺ أنه عندما كان يشرب يحول وجهه عن أصحابه، وهو سيد المتأدبين ﷺ.

ومن آدابهم: إذا استبرؤوا.. يجعلون يدهم من داخل الثوب، ويخافون من وقوع يدهم اليمنى على فرجهم؛ إكراماً للقرآن العظيم وكتب العلم وللسُبْحَةِ التي يسبحون عليها.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: إني لأستحي أن أدخل الخلاء بثوب وقعت فيه الصلاة، أو أقرأ القرآن وقد تكلمت كلمة قبيحة، وربما أترك القراءة إذا تكلمت كلمة قبيحة زمناً طويلاً، حتى أنسى تلك الكلمة، وكذلك أستحي أن أمسك فرجي بيدي اليمنى. قال: وقد بلغنا عن بعض الصحابة أنه لم يمس فرجه بيده اليمنى مذ بايع رسول الله ﷺ إلى أن مات، وبلغني أيضاً أن مريداً من مريدي الشيخ نجم الدين الكبري وقعت يده على فرجه في الخلوة، فتعسر عليه الفتح، فلما خرج بعد الفتح قال له الشيخ: قد علمت بوقوع يدك على فرجك وأنت في الخلوة، وتوقف الفتح عليك بسبب ذلك يا ولدي، كيف يجلس أحدكم بين يدي الله ويضع يده على فرجه؟! أما علمت أن من كان في الخلوة في حضرة الله تعالى.

ومن آدابهم: تقصير ثيابهم. قال الشيخ البصري(١) في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] أي: فقصِّرْ.

ومن آدابهم: إذا لبسوا ثوباً جديداً.. لا يغفلون عن قول: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ لما روى أبو داود، عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.. غُفِر له ما تقدم من

(١) يعني الحسن البصري، وقوله هذا مشهور عن أهل التفسير، وتقصير الثوب إنما يكون قريباً إلى منتصف الساق أو فوق الكعبين، وهو سنة متبعة، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوصى بها وهو على فراش الموت.

ذنبه، ومن لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.. غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١].

ومن آدابهم: إكرام أهل الحِرَفِ المشروعة[٢]، وتعظيمهم بطريقة الشرع؛ لأنهم متخلقون بالأدب مع الله تعالى، ومع الكون، وإن كانوا لا يشعرون بذلك.

ومن آدابهم: تعظيم العلماء، وحملة القرآن الكريم؛ محبة في رسول الله ﷺ، لأنهم حملة الشريعة المطهرة[٣].

ومن آدابهم: لا يمرون راكبين على من علَّمهم شيئاً من القرآن العظيم، ولو صاروا من مشايخ العصر، ولا يمشون أمامه، ولا ينسونه من الهدية والشكر والدعاء، ولا يتزوجون له مطلَّقة أو امرأة مات عنها، ولا يتولون له وظيفة عزل عنها، ولو سئلوا فيها[٤]؛ لأنه أبو الروح.

---

(١) أبو داود (٤٠٢٣)، واللفظ له، وهو عند أحمد ٣/ ٤٣٩، والترمذي (٣٤٥٨) وقال: حسن غريب.

(٢) في (أ) و(ب): (الخرق) بدل (الحرف)، والخرقة: هي رمز لارتباط الخلف بالسلف، يقول العلامة المحدث يوسف بن عبد الهادي: وقد كان جماعة من السلف يفعلون ذلك، ويطلبون لبس الخرق من أيدي الصالحين، والتأدب بأحوالهم وأفعالهم، وقد اعتنى أهل التصوف بلبس الخرقة. ثم ساق سنده بلبسه للخرقة المباركة. «تهذيب النفس» ٨٦-٨٨.

وقال الشعراني في «لطائف المنن» ٣٧١: ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: حسن ظني في الطوائف المنتسبين إلى طريق الفقراء عموماً، كالأحمدية والبرهامية والرفاعية والمطاوعة بالشرقية والصعيد (والتسمية مرتبطة بعصر المؤلف)، ولا أحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة بحكم الإشاعة عن أهل الخرقة.

(٣) أقبل زيد بن ثابت رضي الله عنه يوماً على بغلة، فقام إليه ابن عباس رضي الله عنهما وأخذ بركابه حتى نزل، فقال له زيد: أتفعل هذا وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، قال له: أدن يدك مني، فأدناها، فقبَّلها زيد، فقال له ابن عباس: لم فعلت؟ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ: انظر «عيون الأخبار» ١/ ٢٦٩ بتصرف.

(٤) أي: ولو سألهم ذلك.

وقد كان الشيخ شمس الدين الديروطي[١] - صاحب البرج بدمياط - إذا مرَّ بفقيه.. ينزل عن دابته، ويسوقها أمامه، ويقبل يده[٢]، ثم لا يركب حتى يبعد عنه جداً، أو يتوارى عنه بجدار ونحوه، مع أنه بلغ في العلم الغاية، وشرح «المنهاج» وغيره، وفقيهه[٣] على حكم فقهاء المكاتب، لم يزد على حفظ القرآن الكريم إلا ما لا بدَّ منه، وقلَّ من يفعل ذلك في هذا الزمان.

ومن آدابهم: لا يجلسون للمشيخة، ولو اجتمعت فيهم شروطها إلا بإذن من الله تعالى، أو من بابه الأعظم ﷺ، أو من شيخ عارف ناصح؛ فإنَّ في الإذن البركة والسلامة من الآفات في مستقبل الزمان، والمراد بالإذن من الله تعالى: الإلهام الصحيح[٤].

ومن آدابهم: لا يزهدون في الدنيا إلا لكونها مبغوضة لله تعالى، لا لعلة أخرى: من راحة بدن، أو تخفيف حساب، وكذلك لا يزهدون فيما في أيدي الناس إلا امتثالاً للأمر، وليحبهم الناسُ فيشفعوا فيهم عند ربهم إذا وقعت المؤاخذة على الذنوب، لا لعلة أخرى من إقامة جاه، وانتشار صيت عندهم.

(١) من مشايخ المؤلف، كان أيام السلطان قانصوه الغوري، وكان على زهده وعبادته كثير الهيبة، وقد وصف المؤلف وعظه في الأزهر بأنه مجلس تفيض فيه العيون، شرح «المنهاج» للنووي، توفي سنة (٩٢١هـ). «طبقات الشعراني» ١/ ١٨٢.

(٢) مرّ حديث سيدنا زيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهما. وتقبيل أيدي الصالحين سنة متبعة، روى البخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٤) عن ابن جدعان قال: قال ثابت البناني لأنس بن مالك: يا أنس! مسست رسول الله ﷺ بيدك؟ قال: نعم، قال: أرنيها أقبلها.

(٣) أي: شيخه الذي عظَّمه.

(٤) الإلهام الصحيح له شروط وضوابط تضيق بها هذه الرسالة، ذكر طرفاً منها في «كشف الحجاب والران» ص ١١٨، ويكفي أن نعلم أن الإمام الشعراني ألف كتاباً سماه: «حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام».

ومن آدابهم: لا يشهدون لهم ملكاً في الدارين، ومن هنا صح لهم مقام التجريد في الباطن، فليس لهم علاقة في الدنيا يطلبونها، أو يتأسفون على فواتها، ولو خلع أحدهم ثيابه الظاهرة المعتادة، وجعل على رأسه عرقية فقط، وفي وسطه خرقة تستر عورته فقط، أو خيشة تدفع عنه ألم الحر والبرد فقط.. لم يكن عليه في ذلك لوم؛ لمشاكلة ظاهره لباطنه، بخلاف ما إذا لبس هذه اللبسة قبل حصول التجريد بالباطن؛ فإن ظاهره لم يشاكل باطنه، فوقع في صورة المنافق؛ إذ المنافق هو من أظهر خلاف ما أبطن[1].

ومن آدابهم: التباعد عن كل مَنْ يرونه من العلماء لا يعمل بعلمه، مع إحسان الظن به، ومن كلام سيدي علي وفا: علماء السوء أضر على الناس من إبليس؛ لأن إبليس إذا وسوس للمؤمن.. عرف المؤمن أنه عدو مضلٌّ مبين، فإن أطاع وسواسه.. عرف أنه قد عصى؛ فيسرع في التوبة من ذنبه، والاستغفار لربه، وعلماء السوء يُلْبِسون الحق بالباطل، ويورُّونَ الأحكام على وفق غرضهم وأهويتهم[2]، فمن أطاعهم.. ضل سعيه، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فاجتنبهم، وكن مع الصادقين؛ فإنك تستفيد منهم العمل بأحكام الدين، بخلاف المتفيهقين؛ فإنك لن تستفيد منهم إلا دعوى العلم، والتكبر على المسلمين.

ومن آدابهم: كثرة انقباضهم في نفوسهم إذا رأوا أمراً مخالفاً للشرع؛ إيثاراً للجناب الإلهي، وشفقة على الفاعل، **وليس من آدابهم**: أن يقولوا: هذا فعل الله فلا يُنْقَبَض منه؛ لأنه جهل: «فقد كان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل»[3].

---

(١) انظر النص في «لطائف المنن» ٤٥٤. وفيه شيء من التوسع.

(٢) في (أ) و (ب): (يرون) بدل (يورُّون).

(٣) كما جاء في «الصحيحين» عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ =

وقد قالوا: ينبغي للمؤمن عينان أو أعين: عين ينظر بها إلى ما في الفعل الإلهي من الحكم البالغة؛ ليسْلَمَ من الوقوع في الاعتراض على حكيم عليم، وعين ينظر بها إلى مخالفة العبيد لأوامر ربهم، فيغار لله تعالى. فعلم أن إنكار المنكر لا يقدح في مقام التسليم؛ لأن كلًّا منهما مأمور بها شرعاً، فافهم.

ومن آدابهم: غض البصر عن فضول النظر، والإسراع في المشي مع السكينة، وإصلاح ذات البين، والتعامي عن عيوب الناس، وسترها ونشر محاسنهم، إلا المبتدعة؛ فإنَّ في نشر مساوئهم والتحذير منهم رحمةً للمسلمين، فلا يزيد عذاب المبتدع باتباع الناس له في بدعته، ولا يأثم أحد بسببه[1].

ومن آدابهم: عدم سب الولاة وإن جاروا؛ لأنهم مسلطون غالباً على الرعية بحسب أعمالهم ونياتهم[2].

ومن آدابهم: عدم الاستنصار لنفوسهم؛ فإن الانتصار للنفس من الأمور التي كلها تعب، ومن سلَّم الأمر لمولاه.. نصره من غير عشيرة ولا أهل.

= بين أمرين.. إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً.. كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل».

(١) أي: عند التحذير من بدعة المبتدع لا يعمل بهذه البدعة الخلقُ، وبذلك لا يعذب المبتدع بوزر غيره؛ لأن من سنَّ سنة سيئة.. فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكذلك لا يأثم الخلق باتباعهم لهذه البدعة عند التحذير منها.

(٢) قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وورد عن بعض السلف هذا المعنى؛ انظر «فيض القدير» ٥/ ٤٧، كقولهم: أعمالكم عمالكم، وكما تكونون يولى عليكم، والسؤال: ما هي الفائدة المرجوة من سب الولاة؟ إن الواجب في حق العالم أن ينصح، فالنصيحة ثمرتها مرجوة، أما الشتيمة: فأي شيء فيها؟ بل أي شيء في لعن الشيطان ونفس السوء والدنيا؟ وهذه كلها شر محض؟!

وقد كان من دعاء المصطفى ﷺ: «اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا». وكان الفضيل بن عياض يقول: لو كان لي دعوة مستجابة.. لم أجعلها إلا في الإمام.

ومن كلامهم: إذا انتصر الصوفي لنفسه وأجاب عنها.. فهو والتراب سواء[١].

ومن آدابهم: لا يَدْعُون على مَنْ ظلمهم، ولا يطلبون النصر عليه؛ لعلمهم بأن الله تعالى يكره منهم ذلك، وأن طلب النصر على الظالم من الشهوة الخفية[٢].

ومن آدابهم: لا يدخلون المساجد بنية النوم والاستراحة، ولا يُخْرِجون فيها ريحاً إلا لعذر، ولا يتحدثون فيها بشيء من أمر الدنيا، ولا يمدُّون فيها أرجلهم، ولا يرفعون فيها أصواتهم[٣].

ومن آدابهم: لا يقولون ليد النبي ﷺ: يساراً وإنما يقولون: اليمين الأول واليمين الثاني، أو يمين وجهه ويمين خلفه، ولا يذكرون اسمه الشريف إلا مع مصاحبة لفظ السيادة في جميع المواطن، غير تلاوة وأذان، ومعلوم أن تعظيم النبي ﷺ مفروض على الأمة، وذكر اسمه الشريف بغير لفظ السيادة، منافٍ للتعظيم، وفيه من إساءة الأدب، وقلة الحياء، ما لا يخفى على كل ذي نور.

ومن آدابهم: لا يقولون مثلاً: الفاتحة للنبي ﷺ، واجعل اللهم ثواب كذا وكذا في صحائف رسول الله ﷺ؛ فإن أعمال الأمة له أصالة[٤].

---

(١) وقد رأى الشعراني الدسَّ في كتبه في بداياته، ولم يدافع عن نفسه، وإنما أخبر به في أواخر عمره حينما بلغ زمن المجاهدة للنفس حدّه، قال ذلك في «اللطائف» ٦٩٠.

(٢) وقد مرّ طرف من هذا المعنى في الحقوق، ويقول الحق سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ وفيها دلالة على أن الدعاء على الظالم رخصة، والعفو قربة إلى الله لما فيه من التشبه بأخلاق الله تعالى.

(٣) أفاض المؤلف في حديثه عن آداب دخول المسجد في غير موضع من كتابه «لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية».

(٤) بنصّ قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده.. كتب له مثل أجر =

ومن آدابهم: محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوة وإيمان، لا محبة طبع وإحسان.

ومن وصية سيدي عبد القادر الجيلي: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه.. فاعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت مكروهة فيهما فاكرهه، وإن كانت محبوبة فيهما.. فأحببه؛ لئلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة أن حقيقة الحب في الله: ألَّا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

ومن آدابهم: حفظ الود لمن أكلوا عنده خبزاً، أو ذاقوا عنده ملحاً.

وذكر سيدي علي الخواص رحمه الله أن ذلك كان من أخلاق اللصوص أيام السلطان قايتباي[1]، وحكى من وقائع الشاطر حمور، كبير اللصوص: أنه دخل مرة على تاجر بجوار جامع الغمري بمصر هو وجماعته، حتى وقفوا على رأسه، وأخذوا يفتشون في البيت، فاستيقظ التاجر، فرأى اللصوص واقفين على رأسه، فقال له حمور: لا تخف على نفسك يا خواجا، فالصبيان إنما يطلبون منك الغداء فقط، فقال: كم أنتم؟ فقال عشرة، فقام وأتى لهم بألف دينار، وزاده من ورائهم أربعمئة دينار، فقال له حمور: شكر الله فضلك

= من عمل بها» مسلم (١٠١٧).

فكل عمل صالح يعمله العبد هو حقيقة في صحيفة النبي ﷺ، فما هو قولك: اجعله في صحيفته؟ إنه تحصيل الحاصل، بل هو منافٍ للأدب كما رأى المؤلف رحمه الله.

(١) الجركسي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، ملك الديار المصرية، كان مقبلاً على أعمال الخير، كثير العبادة، كثير العدل، محباً للفقراء، مقرِّباً للعلماء حسنة من حسنات الدهر، وقد طوّل السخاوي في «الضوء اللامع» في ترجمته، ولكونه معاصراً له فقد جعلها سجعاً بارداً جداً، توفي سنة (٩٠١هـ). «البدر الطالع» ٢/ ٥٥ ـ ٥٦، والشعراني يكثر من ذكره في كتبه ويحكي له قصصاً عن حبه للقوم.

يا خواجا، ما كان أملنا فيك هذا كله، فوضع كل واحد نصيبه في جيبه، ورأى واحد منهم حِقّا أبيض يضيء على رفٌ بالبيت، فأخذه، وحدثته نفسه ـ وهو خارج في دهليز البيت ـ أن يفتحه، وينظر ما فيه، ففتحه، فرأى فيه شيئاً ناعماً فذاقه فقال: ملح! فسمعه حمور؛ فقال: ردوا ما معكم؛ فإن صاحبكم ذاق ملح هذا الخواجا، ما بقي يرى منا سوءاً مدة حياتنا، فردوا المال كله، فأقسم عليهم الخواجا أن يأخذوا مئة دينار.. فأبوا.

مطلب الفرق بين السارق والخائن

ومن آدابهم: هجر السارق والخائن، وإخراجهما من بينهم، والفرق بين السارق والخائن، أن الخائن: هو من يسرق ما اؤتمن عليه، والسارق: هو من يسرق ما لا يؤتمن عليه، وقد قالوا: إن الخيانة تذهب البركة من مال الإنسان و عمره، وكذلك القول في السرقة، فما وجدنا قط سارقاً إلا والبركة ممحوقة من ماله وعمره.

وكذلك من آدابهم: هجر الكذاب. قالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذاب، كان يهجر الرجل على الكلمة من الكذب الشهرين والثلاثة[١].

ومن آدابهم: تقديم مَنْ مروءته من حيث نفسه، وميزان ذلك النظر في أمر العبد، فمَنْ كان إقدامه على الأهوال في دين الله وفي غير دين الله على حد سواء.. فذلك من المروءة النفسانية، ومن كان إقدامه على الأهوال في دين الله فقط.. فذلك من المروءة الإيمانية.

وكذلك من آدابهم: تقديم الفقيه الصِّرف على الفقيه المتفعل في الطريق[٢]؛ لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذي يقع فيه المتفعل، مع زيادته عليه

---

(١) روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها (١٩٧٣): «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يحدث عند النبي ﷺ بالكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة» وقال: هذا حديث حسن.

(٢) والمتفعل: من يظهر أنه من رجال الطريق.

بالعلوم الشرعية، بل العامي[١] الذي يعبد الله تعالى، ويسأل العلماء عمَّا أشكل عليه في دينه.. أحسن حالاً من المتفعل في طريق القوم.

مطلب في آداب الزيارة

ومن آدابهم: لا يخرجون لزيارة أحد حتى يتخلقوا بآداب الزيارة، وهي: الشوق إلى المزور، والجزم بفضله وطهارته عن المعاصي المعنوية والحسية، وهم بعكس ذلك، والتماس بركة دعائه ولحظه[٢]، وتحرير النية بأن يكون الباعث على الزيارة امتثال الأمر لا غير ذلك، وحفظ اللسان من الوقوع في أعراض الناس، وترك ذكر المحاسن، وهذا يشترك فيهما الزائر والمزور، فإن خلت الزيارة من هذه الآداب.. فلا نفع بها ولا ثواب، بل هي تكلُّف ونفاق، ثم لا يخفى أنه يجب على الزائر إذا ذكر المزور شيئاً من محاسنه أن يعتقد أنه ما ذكر ذلك إلا لغرض شرعي.

ومن آدابهم: إعطاء الخبز حقه من الإكرام والتعظيم والتقبيل، ووضعه على العين.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إياكم أن تضعوا الخبز على الأرض من غير حائل؛ فإن فيه احتقاراً لنعمة الله عز وجل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ مرة، فرأى كسرة يابسة في جدار وقد علاها الغبار، فأخذها رسول الله ﷺ، وقبَّلها، ووضعها على عينه، ثم قال: «يا عائشة! أحسني مجاورة نعم الله؛ فإن النعمة قلَّما نفرت من أهل بيت فكادت ترجع إليهم»[٣].

ومن كلام سيدي أحمد ابن الرفاعي: قلة إكرام الخبز كفر بنعمة المنعم، فاجتهدوا في إكرامه ما استطعتم، والتقطوا ما يسقط عند سقوطه، ولا تتركوه

---

(١) في (أ): (العاصي) بدل (العامي).

(٢) أي: نظره، فمن وقع عليه نظر صالح.. شمل بعناية الله، فكما يحصل النفع بالدعاء يحصل بالنظر.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٥٧)، وانظر «تنزيه الشريعة» لابن عراق ٢/ ٢٣٥.

إلى آخر الطعام؛ فإن تعظيم نعمة الله من تعظيم الله، وما ابتلي قوم بالغلاء حتى أهانوا الحبَّ لرخصه.

وفي بعض الآثار: أن القرص لا يؤكل حتى يتداوله ثلاث مئة وستون مخلوقاً أولهم ميكائيل، وآخرهم الفرّان[١].

قال: ويكفينا في تعظيم الخبز أن رسول الله ﷺ جعله عديلاً لرؤية الله في حديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»[٢].

ومن آدابهم: إذا فرغوا من أكل ما قُدِّم لهم.. يقولون: الحمد لله رب العالمين على كل حال، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتعم البركات، ويقرؤون سورة قريش، وسورة الإخلاص.

ومن آدابهم: إذا أكلوا عند أحد لم يخرجوا من عنده حتى يشربوا، وقد قالوا: مِنْ بخل الصوفي أن يأكل ولا يشرب.

ومن آدابهم: ـ إذا أكلوا ـ مواساةُ مَنْ حَضَر من ذلك المأكول[٣].

ومن كلام سيدي علي الخواص: إذا أكلت طعاماً.. فأطعم منه مَنْ حضر إن أردت دوام النعمة عليك، ومَنْ أكل، وعين تنظر إليه، ولم يُطْعِمْها.. ابتلاه الله بداءٍ يسمى النفس.

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء»، قال في «المصنوع» ٢٠٨: قال العراقي: لم أجد له أصلاً. وذكر ميكائيل عليه السلام لأنه هو الموكل بتصريف القطر والنبات.

وأخرج البغوي في «معجم الصحابة»: «أكرموا الخبز؛ فإن الله أنزل معه بركات من السماء، وأخرج له بركات في الأرض»، ولابن قتيبة في «تفضيل العرب»: «أكرموا الخبز فإن الله سخر له السماوات والأرض». انظر «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٤٤.

(٢) الحديث «متفق عليه» البخاري (٩٤)، مسلم (١١٥١).

(٣) أي: يواسون الحاضر على مائدتهم، ويطلبون منه مشاركته في الطعام.

ومن آدابهم: تعظيم حقوق الوالدين خوفاً من الوقوع في إساءة الأدب معهما، أو في العقوق لهما، وليس للعقوق ضابط في الشرع، إنما هو عام في سائر ما يخالف غرض الوالدين من جميع المباحات، وليس بعد حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ أعظم من حق الوالدين.

ومن كلام سيدي علي الخواص: من حق والديك عليك: أن تسمع كلامهما، وتقوم لقيامهما، وتمتثل أمرهما، ولا تمشي أمامهما، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، وتخفض جناحك لهما، ولا تمنّ عليهما بالبر لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا تنظر إليهما شزراً، ولا تغضب في وجههما، ولا تسبقهما إلى أطيب الطعام إذا أكلت معهما، بل آثرهما على نفسك، واحرص على تحصيل مرضاتهما.

وحق الوالدة ضعفا حق الوالد العرفي، أما والد الدين: فربما كان أجلَّ مقاماً وحقاً من الوالدة[1]، ومن حقهما ألَّا تدعوَهما باسمهما؛ فمن دعا أحداً من والديه باسمه.. صار عاقّاً له.

ومن آدابهم: محبتهم لعيالهم محبة شرعية، لا محبة الزوجات الطبعيَّة؛ فإن المحبة الطبعية شهوة نفس، ما دام العبد فيها.. فهو في حجاب عن الله تعالى.

واعلم أن الله تعالى حبَّب إلينا النساء بحكم الطبع، ثم أمرنا بمجاهدة النفس حتى تخرج من محبتها الطبعية إلى محبتها الشرعية، وقلَّ من يصبر على مجاهدة نفسه حتى تخرج من ذلك، ومن هنا حذر الأشياخ من تزويج المرأة الحسناء؛ لأن ضررها أكثر من ضرر الشوهاء.

---

(١) لأنه يربي فيك الروح ويغذيها، وهذا لا يكون إلا بعد أداء حقوق الوالدين، فمن قدم حق شيخه على حق والديه.. لم يكن بارّاً بهم جميعاً، فالرباني لا يرضى لمريديه عقوق والديهم.

ومن كلام سيدي أفضل الدين: من أكثر من مجالسة النساء.. فسد عقله، وفاتته الفضائل، وامتنع الحق تعالى من دخول قلبه، وباض الشيطان فيه وفرّخ.

ومن آدابهم: تعظيم كل فقير خامل الذكر مع الاستقامة، أكثر من الفقير المشهور بالكرامات؛ لأن الدنيا ليست بدار نتائج، وإنما هي دار تكليف.

ومن آدابهم: لا يصرُّون على ذنب؛ فإن الإصرار من المهلكات، وتصير الصغيرة به كبيرة، وقد حدَّ بعض الأشياخ الإصرار بأن يؤخر الشخص التوبة حتى يدخل عليه وقت صلاة أخرى من الخمس.

ومن آدابهم: في سوء ظن بأحد أو غيبة ولم يعلم بها صاحبها، أن يقرأ أمَّ القرآن وسورة الإخلاص، والمعوذتين، ويهدون ثواب ذلك في صحائف من أساؤوا به الظن، أو اغتابوه.

وكيفية الإهداء أن تقول: اللهم صلِّ وسلم على نبيك وحبيبك سيدنا محمد وآله، وأثبني على ما قرأته واجعله في صحائف عبدك فلان[1].

تنبيه:

ينبغي لمن يعلم من نفسه أن عليه للناس حقوقاً في المال والعرض، وتعذر رضاهم أن يقرأ مع حضور: سورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، والمعوذتين، كل ليلة، ويهدي ثوابهن في صحائف أولئك الناس، وكيفية الإهداء أن يقول: اللهم صلِّ وسلم على نبيك وحبيبك سيدنا محمد وآله، وأثبني على ما قرأته، واجعله في صحائف من له عليَّ تبعة من عبادك، من مال وعِرْض.

---

(١) هذا كله كما قال المؤلف رحمه الله: إنْ لم يعلموا صاحبها، أما إنْ عُلِم.. فلا بدَّ من استسماحه وطلب العذر منه، فإن لم يرضوا.. ذكر الشيخ رحمه الله التنبيه الآتي لذلك.

ومن آدابهم: إذا أراد أحدهم [أن] يتداين.. أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى ويقولَ بلسانه: اللهم عليك التداين، فخذ بيدي صدقة من صدقاتك عليّ[١].

ومن آدابهم: محبتهم لعترة رسول الله ﷺ ولو كانوا على غير قدم الاستقامة[٢]؛ لأنهم جزء منه ﷺ، وللجزء في المودة والإجلال والتوقير نحو ما للكل.

وقد قال بعض العلماء: من حقوق الشرفاء علينا ـ وإن بَعُدوا في النسب ـ أن نؤثر رضاهم على أهوائنا وشهواتنا، ونعظمهم ونوقرهم، ولا نجلس على سرير وهم على الأرض، لسريان لحم رسول الله ﷺ ودمه فيهم.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من حق الشرفاء علينا أن نفديهم بأرواحنا، وأن نصطنع الأيدي معهم؛ لمكانهم من رسول الله ﷺ، ومن الأدب ألَّا يتزوج أحدنا شريفة إلا إن عرف من نفسه أنه يكون تحت حكمها وإشارتها، ويقدم لها نعلها، ويقوم لها إذا وردت عليه، ولا يقتر عليها في المعيشة إلا إن اختارت ذلك.

ومن آدابهم: لا يغفلون عن زيارة أهل البيت.

وقد صحح أهل الكشف[٣] أن السيدة زينب[٤] رضي الله عنها ابنة الإمام

---

(١) وذلك للحديث الصحيح: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها.. أدى الله عنه...».

(٢) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون، والمقصود: آل بيته ﷺ. ومعنى (ولو كانوا على غير قدم الاستقامة): أن لهم حقاً من المودة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهذه المودة لا تسقط ولو وقع الواحد منهم في المعصية، كما أن حق برِّ الوالدين لا يسقط بالمعصية. وتقدم حديث زيد بن ثابت مع ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قصد بذلك الشيخ علياً الخواص رضي الله عنه، كما نقل ذلك في كتابه «لطائف المنن» حيث قال: أخبرني سيدي علي الخواص أن السيدة زينب... وقد أفاض هناك بالحديث عن هذه المسألة ص٣٩٧.

(٤) وأمها سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود ﷺ، وأخواها الحسن والحسين سيدا =

علي رضي الله عنه، هي المدفونة بقناطر السباع[١] بلا شك، وأن أختها السيدة رقية[٢] رضي الله عنها في المشهد القريب من دار الخليفة أمير المؤمنين، بالقرب من جامع ابن طولون، ومعها جماعة من أهل البيت، وأن السيدة سكينة[٣] رضي الله عنها ابنة السيد الحسين رضي الله عنه في الزاوية التي عند الدرب، قريباً من مشهد عمتها ومن دار الخليفة، وأن السيدة نفيسة[٤] رضي الله عنها في هذا المكان بلا شك، وأن السيدة عائشة[٥] ابنة

= شباب أهل الجنة رضي الله تعالى عنهما، تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر الطيار. توفي سنة (٦٢هـ). «نور الأبصار» ١٨٤.

(١) سميت بذلك لأن ركن الدين بيبرس نصب عليها سباعاً من حجارة، وهو أول من أنشأها. المرجع السابق.

(٢) وأمها أم حبيبة الصهباء التغلبية، اشتراها سيدنا علي رضي الله عنه من سيدنا خالد بن الوليد، وعمر الأكبر شقيقها، وقال في «الفصول المهمة»: كانا توأمين. المرجع السابق.

(٣) وقع في (أ): (نفيسة) بدل (سكينة)، وسكينة هي بنت سيدنا الحسين وأمها الرباب، كانت سيدة نساء عصرها، تزوجها مصعب بن الزبير بداية، وكانت جَلْدَةً لا تخشى أحداً، توفي سنة (١١٧هـ).

(٤) قال الإمام الذهبي: السيدة المكرمة الصالحة ابنة أمير المؤمنين الحسن بن زيد بن سيدنا الحسن سبط رسول الله ﷺ، صاحبة المشهد الكبير المعمول بين مصر والقاهرة، تزوجها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنه، وعندما دخل الشافعي في مصر.. كان يتردد عليها، ولما كان في مرض موته.. سألها الدعاء فقالت: متعك الله بالنظر إلى وجهه الكريم، ولجهلة مصر اعتقاد يتجاوز الوصف، والدعاء مستجاب عند قبرها. توفي سنة (٢٠٨هـ). «سير أعلام النبلاء» ١٠/١٠٦، «نور الأبصار» ١٩٠، «الطبقات للشعراني» ١/٦٨، «الكواكب الدرية» ١/ ٤٩٤.

(٥) عائشة بنت جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول الله ﷺ، أخوها موسى الكاظم، دفنت بباب القرافة بمصر، توفي سنة (٢٤٥هـ). «طبقات الشعراني» ١/٦٦.

الإمام جعفر الصادق رضي الله عنهما في المسجد الذي له المنارة القصيرة، على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة، وأن رأس السيد الحسين رضي الله عنه في القبر المعروف بالمشهد، قريباً من خان الخليلي بلا شك، وضعها طلائع بن رُزِّيك[١] نائب مصر في هذا الموضع في كيس أخضر من حرير أخضر على كرسي من خشب الأبنوس، وفرش تحتها المسك والطيب، ومشى معها هو وعسكره لما جاءت من بلاد العجم حفاةً، من ناحية قطية إلى مصر، وأن السيد محمداً الأنور[٢] عم السيدة نفيسة رضي الله عنه في المشهد القريب من جامع ابن طولون، مما يلي دار الخليفة في الزاوية التي هناك، ينزل إليها بدرج، وأن أخاه السيد الحسن[٣] والد السيدة نفيسة في التربة المشهورة القريبة من جامع عمرو.

وأن رأس الإمام زين العابدين[٤]، وأن رأس السيد زيد[٥] في القبة التي

(١) طلائع بن رُزِّيك الصالح، وزير مصر، الأرمني المصري الرافضي، واقف جامع الصالح، كان أديباً عالماً سمحاً جواداً شجاعاً سائساً، توفي قتلاً سنة (٥٥٦هـ). «سير أعلام النبلاء» ٢٠/٣٩٨.

(٢) محمد الأنور بن السيد زيد رضي الله عنهما، قال الشبلنجي في «نور الأبصار» ١٩٥: وهو على يميني الطالب للسيدة سكينة.

(٣) قال في «نور الأبصار»: قال صاحب كتاب «مرشد الزوار»: كان إماماً عظيماً عالماً، من كبار أهل البيت، معدوداً في التابعين، وولي المدينة، وكان مجاب الدعوة، وله رواية في «سنن النسائي» كذا في «حسن المحاضرة» ١٩٤.

(٤) هو الإمام علي زين العابدين الأصغر، ابن الحسين بن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، أما الأكبر: فقتل في كربلاء مع والده، كان يقول: إن الله يحب المؤمن المذنب التواب. ولم يعهد عليه أنه ترك قيام الليل سفراً وحضراً. توفي سنة (٩٩هـ)، وحمل رأسه إلى مصر ودفن فيها كما ذكر المؤلف رحمه الله . «الطبقات للشعراني» ١/ ٣٢.

(٥) زيد بن الحسن رضي الله عنهما، روى عن أبيه وعن ابن عباس، وقد كتب عمر بن =

بين الأثر قريباً من مجراة القلعة، وأن رأس السيد إبراهيم[1] بن السيد زيد في المسجد الخارج من ناحية المطرية، مما يلي الخانقة، وهو الذي اختفى من أجله الإمام مالك[2].

هذا ما حضرني في هذا الوقت من المدفونين في مصر من أهل البيت، فعليك ـ يا أخي ـ بزيارتهم وقدِّمها على زيارة كل ولي في مصر، عكس ما عليه العامة، فقلَّ أن ترى أحداً منهم يعتني بزيارة أحد ممن ذُكِر كاعتنائه بزيارة بعض المجاذيب، وهذا من جملة الجهل.

الطريق أمامك

ومن آدابهم: لا يميلون إلى شيء من أحوالهم.

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي: أكثر ما يخاف المؤمن ميل نفسه إلى أعماله الصالحة على وجه اعتقاد الإخلاص فيها، ولو كشفاً وذوقاً.

ومن كلام سيدي علي الخواص: لا تفرحوا بما تُعْطَونه من الكرامات والأحوال والعلوم والمعارف حتى يكشف لكم الغطاء، هل هي بطريق الاستحقاق لكم أو بطريق الوعد؟ فإن العطايا التي بطريق الوعد لا ينبغي لعاقل أن يفرح بها، إلا إن كانت قطعية، وما معكم شيء إلا بطريق الوعد وحسن الظن فقط.

= عبد العزيز: إن زيد بن الحسن شريف بني هاشم، وأدوا إليه صدقات رسول الله ﷺ. توفي بعد المئة للهجرة.

(١) نقل الشبلنجي نص الشعراني من «المنن» ثم قال: قال بعضهم: وهذا خلاف ما عليه النسابون، فإنهم لم يذكروا من أولاد زيد بن علي، من اسمه إبراهيم، وذكروا أن الذي قاتل معه الإمام مالك وبايعه هو محمد الملقب المهدي بن عبد الله فلعل إبراهيم المذكور هو ابن عبد الله المحض أخو محمد المهدي. توفي سنة (١٤٥هـ). «نور الأبصار» ١٩٧.

(٢) أراد الإمام مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة، كان يقول: إياكم ورقَّ الأحرار، فلما سئل عن ذلك.. قال: كثرة الإخوان؛ فإن كنت قاضياً.. ظلمت واتهمت بالظلم، وإن كنت عالماً.. ضاع وقتك. توفي سنة (١٧٩هـ).

ومن آدابهم: يشهدون الكمال في صاحبهم، والنقص في أنفسهم، ومن شهد ذلك.. كره العزلة عن الناس إلا لغرض شرعي آخر، كأن يخشى أن يحصل لهم منه شيء يتضرَّرون به.

ومن آدابهم: يشهدون على الدوام أن الله تعالى أرحم بهم منهم، وكذلك لا يقع منهم قنوط من رحمة الله تعالى في وقت من الأوقات.

ومن آدابهم: يتحفظون من التعصب في محبتهم لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو لأولادهم إذ الواجب على كل أحد أن يحب أصحاب رسول الله ﷺ تبعاً لحب رسول الله ﷺ، ويحب أولادهم كذلك، ويقدم أولاد السيدة فاطمة رضي الله عنها على أولاد سائر الصحابة[١].

وذكر الشيخ عبد الغفار القوصي[٢] أنه كان له صاحب من أكابر العلماء، فمات فرآه بعد موته، فسأله عن دين الإسلام، فتلجلج في الجواب، قال: فقلت له: أما هو حق؟ فقال: نعم؛ هو حق، فنظرت إلى وجهه فإذا هو أسود كالزفت، وكان رجلاً أبيض، فقلت له: إن كان دين الإسلام حقاً فما سواد وجهك؟ فقال بخفض صوت: كنت أقدم بعض الصحابة على بعض بالهوى والعصبية.

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذكر المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

(٢) عبد الغفار بن أحمد القوصي، كان جامعاً بين الشريعة والحقيقة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، كان يقول: كلام المنكرين على أهل الله كنفخة ناموسة على جبل، فكما لا يزيل الجبلَ نفخةُ الناموسة، كذلك لا يتزلزل الكامل بكلام الناس فيه.

يحكى أنه أكل مع ولده يقطيناً، فقال لولده: إن رسول الله ﷺ كان يحب اليقطين، فقال: ما هذا إلا قذارة، فسلَّ سيفه وضرب عنق ولده، وقدم غرض الشارع ﷺ على ثمرة فؤاده. توفي سنة نيف وسبعين وستمئة. «طبقات الشعراني» ١/ ١٦١.

ومن آدابهم: يعتنون بإفادة كل جليس معهم وإن لم يكن معتنياً بالفائدة، وكان بعضهم لا يجلس أحد معه إلا ذكر هو وإياه مجلس ذكر، ثم يصرفه بعد ذلك، ويقول: من لم يصلح لاستفادة العلوم.. يصلح لذكر الله.

ومن آدابهم: لا يزورون أحداً، ولا يأكلون من طعامه إلا إن علموا أنه كثير التوقيف[١] عما بأيدي أهل زمانه، ذو حرص على خميرة العجين.

ومن آدابهم: لا يبادرون إلى إجابة من طلب أن يكون مريداً تحت إشارتهم وتربيتهم، وقد قالوا في الزمن السابق: إنْ صحَّ للشيخ في عمره كله مريد واحد صادق.. فهو أعز من الكبريت الأحمر.

صفات المريد الصادق

وصفات المريد الصادق على وجه الاختصار أربعة:

الأولى: صدقه في محبة الشيخ.

الثانية: امتثال أمره.

الثالثة: ترك الاعتراض عليه.

الرابعة: سلب الاختيار معه.

فكل مريد جمع هذه الأربع.. فقد صحت قاسميته، وصار كالحرَّاق الناشف إلى الزناد، ومن طلب من المريدين أخذ العهد عليه، وحرَّاقه مبلول، فلا تعلق فيه شرارة الزناد، بل كل شرارة وقعت عليه طفئت.

ومن آدابهم: يتهمون نفوسهم في المواظبة على الخير، ومجالس الذكر، فقلَّ من يواظب على خير ويجده[٢] الناس عليه، ويسلم من الآفات.

ومن شأن النفس إذا ألفت التعظيم لأجل عبادتها أن يشق عليها تركها؛ لا لأجل مجالسة الحق تعالى فيها، فليمتحن السالك نفسه إن رأى عندها

(١) في (أ): (التوفيق) بدل (التوقيف)، والمراد: كثير التدقيق في البحث عن الحلال.

(٢) في (ب): (ويحمده) بدل (ويجده).

استحياء إذا ترك إظهار تلك العبادة، فليعلم أنها كلها رياء، ويجب عليه التوبة والاستغفار، وإن رآها ليس عندها استحياء.. فليشكر الله الذي نجاه، ثم لا يأمن[(١)].

وقد وقع لبعض السلف أنه صلى الصلوات الخمس في الصف الأول، فتخلف يوماً، فوجد في نفسه خجلاً، فأعاد تلك الصلوات كلها، وقال: إنما كانت مواظبتي رياء وسمعة.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمة الله عليه: كل من وجد في نفسه خجلاً إذا ترك إظهار ورده في القرآن الكريم أو الصوم أو الزهد أو الصمت.. فأعماله كلها رياء وسمعة، لا يجد في صحيفته منها شيئاً يوم القيامة.

ومن كلام سيدي علي المرصفي[(٢)]: لا يليق بفقير أن يجمع الناس على مجلس ذكر إلا إن كان قد خرج عن حب الرئاسة، وإلا أهلك نفسَهُ، وقد أدركت الفقراء وما يتجرأ أحد أن يجلس مع جماعة في مجلس ذكر إلا بعد موت شيخه، أو إذنِه له، بعد أن شهد له الكمال.

ومن آدابهم: لا يستلذ أحدهم بما يحصل له من صورة الخشوع والرعدة، وضم الأكتاف، وإطراق الرأس إلى الأرض، ولا يسامح نفسه في ذلك إلا إن كان مغلوباً.

---

(١) مثال ذلك: إن كنت تلبس ثياب السنة، حتى صار ذلك من جملة عاداتك، وألفك الناس به، فانظر: لو تركته هل تستحي من الناس؟ فإن كان نعم.. فاعلم أن هذه السنة لم يبتغَ بها وجه الله عز وجل، وإلَّا.. فهذا دليل الصدق، وهذا ميزان طيب لوزن الأعمال ونفي البهارج عنها، وانظر المثال الآتي الذي ذكره المؤلف رحمه الله.

(٢) علي نور الدين المرصفي، كان من الأئمة الراسخين في العلم، وله مؤلفات نافعة في طريق القوم، اختصر «رسالة القشيري» وتكلم عن مشكلاتها، وقد قرأها عليه المؤلف بعد قراءتها على الشيخ زكريا الأنصاري، مات رحمه الله سنة نيف وثلاثين وتسع مئة. «طبقات الشعراني» ٢/ ١٢٧.

وقد رأى الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يصلي وقد ضم كتفيه، فضربه، وقال له: ليس الخشوع هكذا، إنما الخشوع في القلب. انتهى.

ففرَّ - يا أخي - من الوقوع في مثل ذلك، وإن رأيت أحداً فعل ذلك، فاحمله على أنه مغلوب.

ومن آدابهم: يغضبون باطناً على كل من ادعى عندهم دعاوىٰ كاذبة، ويباسطونه ظاهراً[1] ثم يُعْلِمونه سراً بكذبه إن رأوا نفسه تحتمل مثل ذلك، وفي هذا الأدب جمع بين الغيرة لله، والنصح لذلك العبد، وقلَّ من يجمع بين هذين الشيئين.

وإذا سألت فاسأل الله

ومن آدابهم: طلب كل ما يحتاجون إليه من باب الله تعالى[2]، دون باب أحد من عبيده، ولا ينظرون إلى باب غيره، إلا من حيث كونُ الخلق كالقناة التي تجري فيها الماء لا غير، فالفضل لمن أجرى الماء في القناة، لا للقناة[3].

ومن كلام سيدي عبد القادر الجيلي: تعامَ[4] - يا أخي - عن الجهات حال طلبك حاجة من ربك.. يفتحْ لك باب فضله، وإلا.. فلا يفتح لك باب فضله؛ لأنه تعالى غيور.

ومن لم يصل إلى ذلك فمن لازمه الاعتماد على الأسباب والوقوف معها، وعدم شكر الوسائط امتثالاً للأمر، وذلك شرك.

---

(١) ومن ذلك قول أبي الدرداء رضي الله عنه كما في «صحيح البخاري»: إنّا لنكْشُرُ - نبتسم - في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم.

(٢) يسألون الله سبحانه وتعالى كلَّ شيء، فقد روى البزار (كما في مختصر زوائده لابن حجر ٢/ ٤٢٧) بإسناد قال عنه: إنه حسن، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسألْ أحدكم ربه حاجته، أو حوائجه كلَّها، حتى يسأل شِسْعَ نعله إذا انقطع، وحتى يسأله الملح».

(٣) انظر «لطائف المنن» للمؤلف ٣٨.

(٤) تعامَ: غيِّبْ وجود الوسائط.

وإياك أن تحذف واسطة رسول الله ﷺ في كل حاجة طلبتها؛ فإن ذلك من سوء الأدب معه ﷺ، وتكون إذ ذاك مبتدعاً لا متبعاً، فافهم.

ومن آدابهم: إذا كانوا يقرؤون القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، وأرادوا أن يكلموا إنساناً في حاجة.. فلا يكلمونه حتى يستأذنوا الله تعالى ورسوله ﷺ بقلبهم ولسانهم أن يكلموا ذلك الإنسان، ثم إن غفلوا عن الاستئذان، وكلَّموا أحداً.. استغفروا الله تعالى حتى يلقي الله تعالى في قلبهم أنه قبِل استغفارهم.

وقد وقع للشيخ أفضل الدين أنه كلَّم إنساناً وهو يقرأ في الحديث قبل أن يستأذن النبي ﷺ، فاستغفر الله تعالى سبعين مرة.

ومن آدابهم: لا يشتغلون حال الأذان بشيء أدباً مع الله تعالى.

وقد حكى بعضهم عن امرأة من الباغيات، أنها رئيت في هيئة حسنة لما توفيت، فقيل لها: كيف ذلك؟ فقالت: أذن المؤذن مرة وكنا فيما لا ينبغي من رفع الصوت، فأمرت رفقتي بالسكوت حتى فرغ المؤذن، فغفر الله لنا بذلك[1].

ومن آدابهم: إذا وجعتهم أرجلهم من القرفصة، لا يمدونها حتى يستأذنوا الله تعالى، وكذلك الحكم في مدِّها نحو المدينة الشريفة، أو نحو ولي من الأولياء، لا يمدونها حتى يستأذنوا النبي ﷺ أو ذلك الولي، كل ذلك لشهودهم أنهم بين يدي الله تعالى، وبين يدي رسوله ﷺ على الدوام، شعروا بذلك أو لم يشعروا، وإن لم يكن ذلك كشفاً كان إيماناً[2].

---

(١) وقد غفر الله لبغيٍّ من بني إسرائيل؛ لأنها سقت كلباً كان يأكل التراب من العطش، كما ورد ذلك في «صحيح مسلم».

(٢) قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ والمؤلف رحمه الله لم ينه عن مدِّ الرجل الثابت في «الصحيح» بفعله ﷺ وفي المسجد، ولكنه يدل على مراتب المراقبة في كل الأفعال والأقوال.

وقد وقع لأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم: أنه مد رجله حين وجعته من القرفصة قبل أن يستأذن؛ فعوتب في ذلك، فلم يمدَّ رجله بعد ذلك إلى أن مات.

وكذلك وقع لأبي محمد الجريري[١]: أنه مد رجلة قبل أن يستأذن، فعوتب في ذلك فلم يمد رجله إلى أن مات.

ومن آدابهم: مواظبتهم على الاستغفار ثلاثاً، وعلى قراءة القرآن، وآية الكرسي، وآخر سورة الكهف، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، والمعوذتين عند النوم، وعلى التسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، والتكبير أربعاً وثلاثين، لخبر أبي داود والترمذي: «خصلتان لا يحصيهما عبد إلا دخل الجنة وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل، يسبح الله دبر كل صلاة عشراً، ويحمده عشراً، ويكبره عشراً، فتلك مئة وخمسون باللسان، وألف وخمس مئة في الميزان، وإذا أوى إلى فراشه.. يسبح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبر أربعاً وثلاثين، فتلك مئة باللسان، وألف في الميزان، وأيكم يعمل في يومه وليلته ألفين وخمس مئة سيئة؟ قيل: يا رسول الله! كيف لا يحصيهما؟ فقال: يأتي أحدكم الشيطان، وهو في صلاته فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، أو يأتيه عند منامه فينوّمه»[٢].

ومن آدابهم: شدة كراهتهم النوم على حدث أكبر أو حدث أصغر.

---

(١) أحمد بن محمد الجريري (ووقع في المخطوط الحريري بالمهملة)، خليفة الجنيد، من أقواله بهذا المعنى: من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة.. لم يصل إلى الكشف والمشاهدة؛ فإن من لا تقوى عنده.. فوجهه مطموس، ومن لا مراقبة له.. فحاله منكوس. توفي سنة (٣١١هـ). «طبقات الشعراني» ١/ ٩٤، «طبقات الصوفية» ٢٥٩.

(٢) أبو داود (١٥٠٢)، والترمذي (٣٤١٠)، وهو في «الأدب المفرد» للبخاري (١٢١٦)، والحميدي (٥٨٣)، وأحمد ٢/ ١٦٠، وابن ماجه (٢٦)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله: إياك أن تنام على حدث ظاهر أو باطن من محبة الدنيا وشهواتها؛ فربما أخذ الله تعالى روحك تلك الليلة، فتلقى الله تعالى وهو عليك غضبان، بحسب قبح ذلك الذنب الذي نمت عليه.

وفي الحديث: «يحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[١] وفي الحديث أيضاً: «أن الله منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها» أي نظر رضا عنها، وعن محبتها[٢] وإلا.. فهو تعالى ينظر إليها نظر تدبير، ولولا ذلك.. لذهبت في علم الله تعالى، ولم يبقَ لها وجود، فافهم.

فمن نام على محبة الدنيا، ومات في تلك الليلة.. حشر مع مبغوض لله تعالى، لم ينظر إليه منذ خلقه، فهذا الأمر قلَّ من ينتبه له في هذا الزمان حتى يتوب منه، بل غالب الناس لا يعد محبة الدنيا ذنباً.

وقد كان مالك بن دينار[٣] يجمع أصحابه ويقول لهم: تعالوا نستغفر من الذنب الذي أغفله الناس، وهو حب الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٠٣، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وقال: حديث حسن غريب، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ السخاوي: وتوسع ابن الجوزي فذكره في «الموضوعات».

وروى أحمد ٣/ ٣١٤ عن جابر: «يبعث كل عبد على ما مات عليه».

(٢) أخرجه ابن عساكر في ترجمة أبي القاسم الفارقي (سعادة بن الحسن) واللفظ عنده: «إن الله عز وجل لما خلق الدنيا أعرض عنها، فلم ينظر إليها من هوانها عليه» انظر مختصر ابن عساكر ٩/ ٢٣٠.

(٣) أبو يحيى، مالك بن دينار البصري، العالم الزاهد الورع، كان يقول: لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خالٍ يذكر الله فيه، وكان يقول: أكره أن يأتيني أحد إخواني إلى منزلي خوفاً ألّا أقوم بواجبه حقاً. توفي سنة (١٣١هـ). «طبقات الشعراني» ١/ ٣٧، «الحلية» ٢/ ٤٠٦.

ومن آدابهم: العمل على تصفية صدورهم من الغشّ؛ ليصلحوا لدخول الحضرة الإلهية التي هي أشرف وأفضل من الجنة، فإن دخولها محرَّم على مَنْ في قلبه غشٌ لأحد من الخلق.

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني! إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد.. فافعل، ثم قال: يا بني! وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي.. فقد أحياني، ومن أحياني.. كان معي في الجنة»[١].

وقال الشيوخ: مقاساة الجوع والصبرُ عليه سهل، ومعالجة الأخلاق والتنقي من سفسافها صعب شديد.

والمراد بالغش: الغل والحقد والبغض والحسد وسوء الظن، ولا يقدر على تصفية صدره من هذه المذمومات إلا من زهد في الدنيا وفي الرئاسة؛ فإن منبع ذلك من حب الدنيا، ومن حب الرئاسة، ومن هنا ظهر فضل الصوفية وكمال شرفهم على غيرهم، لزهدهم في الدنيا، وفي محبة الرفعة عند أهلها، ولاستمساكهم من التقوى بأوثق العرى، فعلم أن من زهد في الدنيا، واستمسك بالتقوى.. صارت نفسه مأمونة الغائلة من الغل والحقد والبغض والحسد، وسائر المذمومات، فهذا حال الصوفي.

وقال بعضهم: مجمع حال الصوفية أمران، هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. فقوم من الصوفية خُصُّوا بالاجتباء الصِّرف، وقوم منهم خُصُّوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، فالاجتباء المحض غير معلَّل بكسب العبد، وهذا حال المحجوب المراد، يناديه الحق سبحانه بمِنَحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه، يسبق كشفُه اجتهادَه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨)، عن أنس رضي الله عنه، وفيه: «فقد أحبني، ومن أحبني.. كان معي في الجنة».

وأما أهل الهداية الذين شرط الحق سبحانه وتعالى لهم الإنابة: فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فقد طُولِبوا بالاجتهاد، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] يُدَرِّجهم الله في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات، وسهر الدياجر وظمأ الهواجر، يتقلبون في رمضاء الإرادة، ويخرجون عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه لهم، وجعل الهداية معروفة بها، وهذه الهداية أيضاً هداية خاصة؛ لأنها هداية إليه سبحانه غير الهداية العامة، التي هي التهدِّي إلى أمره ونهيه، بمقتضى المعرفة الأولية، وهذا حال المحب السالك الذي سبق اجتهادُه كشفَه، وهذا أثمر وأكمل من الأول.

ومن آدابهم: يفتتحون قيام الليل بركعتين خفيفتين، يقرؤون في الأولى بعد الفاتحة بآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقد حُبِّب لي أن أقول بقلبي ولساني بعد السلام: يا سيدي! يا رسول الله! استغفر لي ربك، صلى الله عليك وسلم، ثلاث مرات أو أكثر، اللهم عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي صدقة من صدقاتك عليَّ يا أرحم الراحمين، ثلاث مرات وأكثر.

واعلم أن الفقراء يكرهون النوم في الثلث الأخير من الليل أشد من كراهتهم للمعاصي الظاهرة، وقد مكث ابن المؤذن[١] بناحية منية أبي عبد الله أربعين

---

(١) في (أ): (المزين) بدل (المؤذن)، وهو خطأ كما يفهم من اللحاق. وهو معاصر لمحمد السروي كما يفهم، فهو من رجال القرن العاشر، والله أعلم.

سنة، لا يضع جنبه الأرضَ بالليل، فكان سيدي محمد السروي[1] يقول: هنيئاً لابن المؤذن، لم يدع مدداً ينزل من السماء في الليل إلا وله فيه نصيب.

ومن آدابهم: كثرة ثنائهم على الله تعالى إذا نزل بهم ما يسوؤهم عادة[2]؛ لعلمهم بأن تقديراته تعالى على عباده عين الحكمة لا بالحكمة، لأنها لو كانت بالحكمة.. لكانت أفعاله تعالى معلولة تحت حكم الحكمة، ومن هنا كان لا يجوز السخط على شيء من أفعاله أبداً، ومن سخط.. فهو جاهل، ولو كشف للعبد عن ما أعد الله له في نظير صبره على البلايا في الجسد أو المال أو الولد.. لكان هو يسأل الله تعالى في نزول ذلك به، وأيضاً: فإن كل واقع في الوجود بالإرادة الإلهية، وسبق علمٍ لا يصح تغييره، والرضا به واجب.

ومن آدابهم: لا يتداوون من مرض إلا إن اشتد، بحيث يشغلهم بالالتفات إليه عن كمال الحضور مع الله تعالى، وما دام أحدهم يتيسر له الحضور النسبي في عبادته.. فلا يتداوى[3].

---

(١) أبو الحمائل، قدم مصر، وسكن الزاوية الحمراء، أخذ عن الشناوي وغيره، وهو من شيوخ المؤلف، توفي سنة (٩٣٢هـ). «طبقات الشعراني» ٢/ ١٦٢، «الكواكب الدرية» ٤/ ١١، «جامع كرامات الأولياء» ١/ ٢٩٩.

(٢) في (أ): (بمادة).

(٣) أيهما أرجح: التداوي أو تركه؟ خلاف عند أهل العلم، قال ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» في الحديث التاسع والأربعين: وقد اختلف العلماء هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله؟ فيه قولان مشهوران، وظاهر كلام أحمد أن التوكل لمن قوي عليه (كما قال المؤلف: لم يشغله عن واجب العبودية) أفضلُ.

ونقل الحافظ ابن حجر أقوالاً في «الفتح» ١٠/ ٢٢٢: أن المراد بترك الرقى والكي الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره، لا القدح في جواز ذلك؛ لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب، وإلى هذا نحا الخطابي ومن تبعه.

ثم لا بد مع التداوي بشرطه من مراعاة نية التداوي، وذلك بأنْ تداوىٰ قياماً بواجب حق أَمَةِ الله تعالى[١]؛ إذ الحق تعالى هو المالك للجسم، والعارف إنما يتداوى لأجل كون ذاته أَمَةَ الله تعالى لا لنفسه هو، ففرقٌ بين مَنْ تداوى قياماً بواجب حق ربه وبين من تداوى قياماً بحق واجب نفسه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ونظير ذلك محبتهم العفو من قبل الحق سبحانه وتعالى فلولا علمهم بمحبته تعالى له.. ما طلبوه منه، فافهم[٢].

ومن آدابهم: شدة كراهتهم لمناجاة الحق تعالى إذا تلطخ ثوبه أو بدنه بنجاسة ولو من حصول مرض؛ تعظيماً لمناجاة الحق تعالى، لا سيما إنْ حصل لأحدهم إدرار بول ومشي بطن، فمَنْ ناجى الله تعالى في حال تقذّر بدنه أو ثوبه.. فهو خارج عن أدب الأكابر.

ومن هنا اتخذ الأكابر السجادات النفيسة في الصلاة؛ تعظيماً لحضرة خطاب الحق تعالى، وخوفاً أن يدوس أحد برجله في محل تخيلوا فيه وجود قرب الحق تعالى، لا لعلة أخرى من علل النفوس.

ومن آدابهم: إذا استشارهم أحد في الأخذ عن أحد من مشايخ الزمان.. أن ينصحوه ولا يغشوه، فيقولون له: إن أردت الطريق.. فعليك بفلان، وإياك والاجتماع بفلان، لكن يكون ذلك القول سراً؛ لئلا يتولد من ذلك مفسدة، ويكون بحق، وإلا.. كان غشاً لعباد الله، وطريق الحق في ذلك أن يكون ذلك الشيخ ناقصاً، لا قَدم له في الطريق، وأن ذلك المريد لا نصيب له عند ذلك الشيخ.

---

(١) أراد أن العبد وما ملكت يمينه لسيِّده، والله سبحانه استرعاك على ذاتك التي لا تملكها.

(٢) لما أخرجه أحمد ٦/ ١٧١، والترمذي (٣٥١٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٧٢)، وابن ماجه (٣٨٥٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله! أرأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أدعو؟ قال: «تقولين: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني». وتوسَّعَ المؤلف في الحديث عن هذا في «لطائف المنن» ١٦٣.

وكان سيدي علي الخواص لا يذكر أحداً بسوء، ومع ذلك فكان يقول لأصحابه كثيراً: إياكم والاجتماع بالشيخ الفلاني؛ فإنه جلس بنفسه من غير إذن شيخ، فيصرح باسمه[١] ولا يكني عنه؛ نصحاً للمسلمين، وكان يقول: من لم يجد في عصره شيخاً صادقاً ناصحاً يربيه[٢].. فحسبه محبة الله تعالى، ومحبة رسول الله ﷺ، وحسن الاعتقاد، والرضا بالإقامة في الأسباب بنية نفع العباد، ونفع نفسه[٣].

وإذا اجتمعتم بأحد من مشايخ هذا العصر الذين جلسوا بأنفسهم، وزلَّ بكم القدم.. فإياكم ونسبته إلى القطبية، ولا تزيدوا على وصفه بسيدي فلان، وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا آنافكم، وتطأطئوا رقابكم، بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه، ومن فعل ذلك مع إخوانه.. حصل بينه وبينهم ما لا خير فيه من التقاطع والتدابر والتباغض، ويصيرون كأنهم في دين وهو في دين، وما نهى الأشياخ المريد أول توبته عن مخالطة إخوان السوء.. إلا خوفاً عليه أن يرجع إلى فعل ما كان تاب منه بمخالطتهم[٤].

ومن آدابهم: يندمون إذا أتوا شيئاً من المنهيات، أكثر ما يندمون إذا فاتهم شيءٌ من المأمورات.

---

(١) في (أ) و (ج): (بإذنه) بدل (باسمه).

(٢) وهذا قصور كما نص عليه المؤلف في غير موطن من كتبه.

(٣) أضف إليها ما قاله الشيخ العارف بالله محمد الهاشمي رحمه الله في خاتمته لكتاب «شرح شطرنج العارفين»، ومن أهمها: ملازمة الصلاة على النبي ﷺ؛ فهي تربيه وترقيه وتهذبه وتوصله، نقل ذلك من الشيخ زروق عن شيخه أبي العباس الحضرمي والشيخ السنوسي عن بعض أئمة التصوف.

(٤) وهذا الشرط مستفاد من حديث مسلم (٢٧٦٦): في الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، فلما جاء للرجل العالم.. قال له: انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك.

وقد قالوا: مقام الصدِّيقيّة أكمل وأرفع من مقام الشهادة. والصديقية في اصطلاحهم: اسم لترك المناهي، والشهادة: اسم لالتزام الأوامر[١].

ومن آدابهم: لا يشتغلون بالرياضة والخلوة طلباً لحصول الولاية.

وكان سيدي علي الخواص يقول: حكم هؤلاء الأشياخ الذين يأخذون العهد على المريدين بالجوع والرياضة ليصيروا أولياء، حكم من أراد أن يجعل شجرة أم غيلان[٢] تطرح عنباً، أو شجر الجميز يصير تفاحاً، وذلك لا يصح له أبداً.

واختلى شخص، وأكثر من الذكر، وبالغ في الجوع طلباً للولاية، فذهب إليه وقال له: يا مبارك الحال! اخرج من الخلوة، وما قُسِم لك.. لا بدَّ من حصوله، والولاية الخاصة لا تنال بعمل، وليس لها طريق ظاهر تطلب منه، إنما هي أخذة تأخذ العبد على أي حالة كان، فتقلب عينه ولياً خالصاً في أسرع من لمح البصر، وهي مرتبة مخصوصة لأقوام مخصوصين، على عدد مخصوص، لكن العدد بالمراتب لا بالأشخاص؛ فقد يكون في المرتبة الواحدة شخصان أو أربعة أو أكثر، وقد يكون في المرتبتين واحد، وقد يكون

---

(١) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال الإمام النسفي في تفسيرها: ترك المنِّ والأذى خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه.

وقد أفاد فضيلة الشيخ العلامة أديب الكلاس حفظه الله بشرح هذا المعنى وضرب على ذلك مثلاً فقال: لو جاءك ضيف قبل صلاة الظهر، فبعد الغداء أخذ قيلولة ولمَّا يصلِّ، وأنت توقظه للصلاة، وهو يُسَوِّفك إلى أن قام فتوضأ فأذن العصر، فما أنت فاعل معه؟ أمَّا لو رأيت ضيفك المقيم الصحيح يأكل في رمضان فإنك تعنفه وتزجره، ومن هنا يتبين أن خطيئة سيدنا آدم أعظم من معصية إبليس، غير أنه عليه السلام أناب إلى ربه، وإبليس أبى واستكبر، فافهم. وقد أبدى عجبه من دقة نظر المؤلف رحمه الله.

(٢) شجرة أم غيلان: شجرة السَّمُر.

الرجلان بمنزلة الرجل الواحد، وأما الولاية العامة: فقد تنال بعمل كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[١].

فما حصلت محبة الحق تعالى لهذا العبد إلا بعد تَفَعُّل، وذلك معلول عند الخواص، محمود عند غيرهم؛ لعدم من يرشدهم إلى تحقيق الأمر في طريق الخواص[٢].

فاخرج ـ يا أخي ـ من الخلوة، وتب إلى الله تعالى، واطلب بأعمالك تحصيل مقام الصديقية والشهادة لا تَحَصُّل مقام الولاية، فأبى، فمات بعد يومين.

ومن كلام سيدي أفضل الدين: المتأهلون في أيام الفترات أحسن حالاً من هؤلاء الذين يدخلون الخلوة في هذا الزمان؛ فإن هؤلاء اشترطوا في التخلي شروطاً لم يشترطها المتأهلون من الجوع المفرط، وعدم الكلام، وعدم النوم، وغير ذلك، مما أضعفت أبدانهم، وكثرت به تخيلاتهم، وفسدت به عقائدهم، حين ظهر لهم ما ظهر من النور والظلمة، ومن الصور الحسنة والمهولة، من كلاب[٣] وحيّات وغيرها، مما هو كامن في طبع الإنسان؛ فإن جسده هو النسخة الجامعة لما في العالم العلوي والسفلي[٤].

ثم لا يخفى أن ما ذكرناه من ذمِّ الخلوة إنما هو في حق من يطلب بخلوته أمراً دنيوياً، أما من يطلب بها صفاء المعاملة مع الله تعالى في المأمورات الشرعية.. فهذا لا بأس به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: «من عادى لي ولياً.. فقد آذنته بالحرب...».

(٢) وعليه قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من دلَّك على الدنيا.. فقد غشَّك، ومن دلك على العمل.. فقد أتعبك، ومن دلك على الله.. فقد نصحك.

(٣) في (أ): (كلات) بدل (كلاب).

(٤) وعليه قول الشاعر:

وتزعم أنك جسم صغير ... وفيكَ انطوى العالم الأكبر

ومن آدابهم: رؤية نفوسهم في كل مجلس جلسوا فيه مع المسلمين ـ لا سيما الفقراء ـ أنهم أكثرهم ذنوباً.

وقد حُبِّبَ إليَّ أن أقول في كل مجلس جلست فيه مع المسلمين: اللهم إني اعترفت بين يديك بأني أكثر هؤلاء ذنوباً، وأقلهم حياء، وأسوؤهم أدباً، فبحق أسمائهم الظاهرة اغفر لي.

ومن آدابهم: إذا أرادوا [أن] يأمروا أحداً بخير أن يُحَرِّروا نيتهم؛ فربما كان في ذلك علة تقدح في الإخلاص، فليمتحن مدعي الإخلاص نفسه، بما لو تفرقت جماعته إلى شخص من أقرانه، فإن حصل عنده تأثير.. فأمره ودعاؤه لحظِّ نفسه، لا امتثالاً لأمر الله تعالى(١).

ولذلك كان لا يتصدر للدعاء إلى الله تعالى في كل عصر سبق إلا أكابر الأولياء الذين خرجوا من حظوظ النفوس، وأما أمثالنا.. فإنْ تَصَدَّر ربما أهلك نفسه وأتباعه(٢).

ومن آدابهم: رد كل ما يأتيهم من مال الولاة؛ لأنه مخلوط بالحرام والشبهات.

ومن آدابهم: لا يأكلون للمفتقد طعاماً.

ومن كلام سيدي إبراهيم المتبولي: لا ينبغي لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا إن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة التي عملها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه، وإلا.. حَرُم عليه الأكل.

---

(١) وهذا هو حال المؤلف رحمه الله تعالى رحمة واسعة كما ذكر ذلك في كتابه «لطائف المنن» ٣٠٠: ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: فرحي بكل شيخ أو واعظ برز في حارتي، وصار يلتقط أصحابي الذين كانوا حولي واحداً بعد واحد، حتى لم يبق حولي منهم واحد، وهذا الخلق من أكمل أخلاق الرجال.

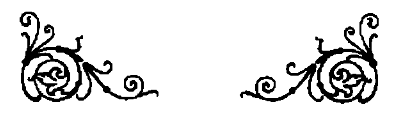
(٢) ولا يفوتنَّك الفرق بين التصدر للدعاء والدعاء، فلا يقال: ترك الدعاء مخالف لما جاء به الشارع.

ومن آدابهم: إذا أكلوا عند أحد أو شربوا.. أن يقولوا: اللهم إن كان ما أكلناه عند عبدك أو شربناه حلالاً.. فوسِّعْ عليه، واجزه خيراً، وإن كان حراماً أو شبهة.. فاغفر لنا وله، وأرضِ عنا أصحاب التبعات يوم القيامة، صدقة من صدقاتك علينا يا أرحم الراحمين.

ومن آدابهم: إذا أرادوا الدخول في عمل من الأعمال الصالحة.. يقولون بقلبهم أو لسانهم: نعمل ذلك أو نقول ذلك امتثالاً لأمرك يا مولانا ومولى كل موجود وأنت خالقه، ولهذه الكلمة تأثير عظيم، فإذا فرغوا منه.. حمدوا اللهَ إذْ أهَّلَهم لذلك، واستغفروا الله من تقصيرهم فيه ثلاث مرات.

وقد حُبِّب لي أن أقول: أستغفر الله العظيم من تقصيري في كل عبادة عدد أنفاسي.

وآداب القوم كثيرة كما تقدم، وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين[1].



(١) ويكاد يكون كتاب المؤلف «لطائف المنن» من أهم مجامع هذه الآداب، فمن أراد البسط فيها.. فعليه به، وكذا القول في كتابه «تنبيه المغترين».

خاتمة

في آداب الذكر المتفق عليها

اعلم ـ وفقني الله وإياك إلى دوام ذكره ـ أن آداب الذكر إذا كان باللسان ستة وعشرون أدباً، منها ما هو سابق على الذكر، ومنها ما هو حال الذكر، ومنها ما هو بعد الفراغ منه.

فالسابق خمسة:

- **الأول**: التوبة النصوح: وهي أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة. وفي كلامهم: «منِ ادعى التوبة، ومال إلى شيء من شهوات الدنيا المباحة.. فهو كاذب»[1].
- **الثاني**: الغسل أو الوضوء.
- **الثالث**: تطييب ثيابه وفمه.
- **الرابع**: تحرير النية، وهو أن يكون الباعث له على الذكر امتثال الأمر، لا غير ذلك.
- **الخامس**: مصاحبة التعظيم للمذكور.

وأما التي حال الذكر فستة عشر:

- **الأول**: الجلوس على مكان طاهر، كالجلوس في تشهد الصلاة.

---

(١) هو لذي النون المصري رحمه الله تعالى، كما ذكر ذلك المؤلف في كتابه «لواقح الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية» ١/٣٦، وقد عقد باباً لذلك.

- **الثاني**: وضع الراحتين على الفخذين.
- **الثالث**: استقبال القبلة، إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلَّقوا[١].
- **الرابع**: تطييب مجلس الذكر.
- **الخامس والسادس**: دوام الإخلاص والصدق.
- **السابع**: أن يكون المأكل والملبس حلالاً.
- **الثامن**: أن يكون الموضع مظلماً.
- **التاسع**: تغميض العينين من الذكر[٢].
- **العاشر**: استحضار معنى الذكر.
- **الحادي عشر**: ألَّا يشرك معه غيره.
- **الثاني عشر**: نفي كل موجود من القلب سوى المذكور.
- **الثالث عشر**: أن يكون جهراً.
- **الرابع عشر**: أن يكون بقوة تامة.
- **الخامس عشر**: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه[٣].
- **السادس عشر**: اجتناب اللحن.

---

(١) كما ورد في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا مررتم برياض الجنة.. فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر».

(٢) قال المؤلف: ذلك أن الذاكر إذا غمض عينيه.. تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً، وسدها يكون سبباً لفتح حواس القلب. «قواعد الصوفية» ١/ ٣٧.

(٣) انظر كتاب «هذا والدي» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله ١٠٢.

وأما التي بعد الفراغ من الذكر فخمسة:

- **الأول**: ذم النفس لحظة(١).
- **الثاني**: ألّا يشرب حتى يمضي عليه درجتان أو ثلاث.
- **الثالث**: أن يسكت سكتة طويلة.
- **الرابع**: ترقب وارد الذكر.
- **الخامس**: الشكر على التيسير، والاستغفار من التقصير.

فهذه آداب الذكر المتفق عليها.

وأما غير المتفق عليها.. فكثيرة، أوصلوها إلى مئة أدب(٢)، ولم أرَ في مشايخ هذا الزمان شيخاً يعرف للذكر عشرة آداب.

تنبيه:

أفضل صيغ الذكر هو إدارة كلمة الإخلاص؛ فإن لها أثراً عظيماً لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار(٣).

تنبيه آخر:

جعل بعضهم(٤) للسكتة المتقدمة ثلاثة آداب:

---

(١) بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة... حتى يدور الوارد في جميع عوالمه، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم. «قواعد الصوفية» ١/ ٤٠.

(٢) بل إلى ألف أدب كما ذكر المؤلف في غير هذه الرسالة، ويجمع هذه الآداب كلها ما ذكره هنا، كما قال المؤلف رحمه الله. المرجع نفسه.

(٣) وفضل «لا إله إلا الله» مما تكاثرت فيه الأحاديث.

فائدة: قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣/ ٣٤: لا يتعين للذكر شيء مخصوص، لا يجزئ غيره، بل كل ما صدق عليه ذكر الله أجزأ، ويدخل فيه: تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبوي، والاشتغال بالعلم الشرعي.

(٤) هو الإمام الغزالي رحمه الله تعالى. «قواعد الصوفية» ١/ ٤٠.

- **أحدها**: استحضار العبد أنه بين يدي الله، وأنه مُطَّلِع عليه.
- **ثانيها**: جمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة، كحال الهرة عند اصطياد الفأر.
- **ثالثها**: نفي الخواطر كلها، وإجراء معنى الذكر على القلب.

تنبيه آخر:

قد علم أن الصواب في حق الذاكر إذا سكت وسمع قوّالاً ينشد كلام القوم.. ألَّا يتحرك، ولا يتلفظ أو يمدح النبي ﷺ، وأن يصلي سراً لا جهراً.

وهذا آخر الرسالة التي اقتضتها البطالة، ولعمري ـ مع صغر حجمها ـ إنها لكثيرة الفوائد، لا يرغب عنها إلا عدو أو حاسد، احتوت على ما لم تحتوه الكتب الكبار، تستحق أن تسمى **برسالة الأنوار**، أخبارها وجيزة، آدابها غريبة عزيزة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها من كتبها أو قرأها أو سمعها، وأن يجزي خيراً مَنِ اطَّلع على هفوةٍ فأصلحها، وأن يصلي ويسلم على مولانا وسيدنا محمد الكريم الأمين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، عدد ذكر الذاكرين، وسهو الغافلين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات


بحمد الله تعالى